

سيكولوجية الضمير

تأليف

محمد كامل النحاس

المراقب بوزارة المعارف
وأستاذ علم النفس بدار المعلمين العالية ببغداد

الناشر

دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بمصر



تأليف

محمد كامل النحاس

المراقب بوزارة المعارف

وأستاذ علم النفس بدار المعلمين العالية ببغداد

الناشر

دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بحث فى سيكولوجية الضمير الإنسانى : ماهو ؟ وكيف يتكون ؟ وكيف يؤثر فى سلوك الإنسان وأخلاقه ، كنت قد ألقيته فى أربع محاضرات عامة فى قاعة دار المعلمين العالية ببغداد فى شهر إبريل الماضى . وقد طلب إلىّ الكثيرون ممن حضروا هذه المحاضرات أو سمعوا بها أن أنشرها فى كتاب . وشجعنى زملائى الأفاضل على ذلك ، وأخص بالذكر منهم صديقىّ الدكتور متى عقراوى المدير العام للتعليم العالى فى وزارة المعارف العراقية ، والدكتور عبد الحميد كاظم عميد دار المعلمين العالية فى بغداد .

وقد أردت نشر المحاضرات كما ألقيتها دون تغيير أو تبديل ، اللهم إلا وضعها فى صورة كتاب بدلا من صورة محاضرات ، وذكر بعض المصادر التى استعنت بها فى القيام بهذا البحث .

وإنى لأرجو أن يكون فى نشر هذا البحث الفائدة التى أتوخاها ، وبخاصة فى هذه الظروف الاجتماعية العصيبة التى تلت الحرب العالمية ، والتى تترنح فيها المجتمعات الشرقية تحت ضغط من مختلف العوامل والموجات التى تزحف إليها من بقاع كثيرة من العالم .

والله تعالى ولى التوفيق .

القاهرة ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٨

محمد عثمان النجاتى

المراقب بوزارة المعارف

ـ وأستاذ علم النفس بدار المعلمين العالية ببغداد

الفهرست



الباب الأول

سيكولوجية تكوين الضمير

مقدمة :

ليس من شك فى أن الحياة الاجتماعية فى كثير من بقاع العالم ، حياة كئيبة محزنة . فلقد صب الإنسان نيران الويلات على رأسه ، وها هو يقف الآن كالصيد فى الفخ يدور فيه حائراً متحيراً ، ثم يقدح زناد فكره للتخلص منه وإطلاق سراح روحه الحبيسة المكبلة ، ولكن الفخّ معقد التعقيد كله . . . واحسرتاه للإنسان الغرور ! ! لقد نسج خيوطه من قبل بنفسه ، ثم ها هو اليوم لا يدرك ما نسج فى أمسه . أغراه ما صنع ، وهاله ما أبدع فشرُد لبه وجمحَ قلبه ، وإذا بالخيوط تتشابك حوله ، فتزيد هوله ، وإذا به محصور محسور ، يدب القلق فى أوصاله ، ويغمره الغيظ فى نضاله ، فيزداد موقفه حرجاً ، ويعمى عن أن يجد فى قفصه مخرجا .

ماذا دهى الإنسان ؟ أكلما زاد عقله نوراً ، خطف ببصره النور ، فترنح فى الحياة وتخبط واضطرب ؟ وكلما زاد النور لألاءً عمى عن الطريق القويم ، وضل عن الصراط المستقيم ، وزلت قدماه ، واختل توازنه فى الحياة ؟ ؟ لماذا يصير النور لهيباً مشتعلا ، ويُصبح الضياء جحيما مندلعا ، يحرق فى جسمه ونفسه ، ويكوى قومه وبنى جنسه ؟

ما هذه الحروب التى تسيل الدماء فيها بحوراً زاخرة ؟ ما هذه الوحشية الثائرة الكاسرة ؟ ما هذه الحقود الفائرة الكافرة ؟ ما هذه الحياة الحيوانية الكاشرة السافرة ؟ حقاً لقد اختل البشر فأصبحوا بحاجة إلى هدى يُرجع اليهم توازنهم ، ويحيل شرهم خيراً ، وعسرهم يسرا .

لا بد لهذه الفوضى الخلقية التى انغمس فيها الفرد والمجتمع من تشخيص وعلاج ، عل ذلك يُرجع الوحش إنسانا يشع الرحمة فى الحياة ، وعل القلوب التى تحجرت على الشر والبغضاء ، تلين قناتها ، وتصبح ينابيع خير وإخاء فتنشر السعادة أجنحتها على الكون .

علم النفس والأخلاق :

لقد سلط علم النفس أضواءه على هذه الفوضى الأخلاقية ، واستطاع أن يكشف القناع عن جزء غير قليل منها : عن أسبابها وطرق علاجها . ولعل البعض يتساءلون ما لعلم النفس وهذه المشكلة الكبرى ؟ ما لهذا العلم الحديث الذى لم يستقر بعد استقراراً كبيراً ، يعمل على أن يغوصَ فى ملمة الحياة العظمى ، وهو لا يزال ، رطب العود ، محدود الجذور ، ضيق الظل ، قليل الثمر ؟

والجواب على هذا ، إنه العلم الوحيد الذى أخذ على عاتقه أن يبحث فى عقل الإنسان ودوافعه ونزعاته ، ما هى ، وكيف تتطور ، وكيف تتأثر ، وكيف تتفاعل وتتغير . والأخلاق : إنما هى بناء على أساس من تلك الدوافع والنزعات البشرية . فمن الخير أن نصيب فى دراستها مما جنى هذا العلم مهما كان محدوداً قليلا .

لم يقل أحد من الناس ، عند ما كان علم الطب فى بدايته ، ألا ننتفع من بحوثه حتى يكبر ويكمل ، بل أخذ الناس بالإفادة منه . وكلما نما ، زاد انتفاعهم به . . ثم ، أى علم وصل إلى كمال ؟ بل أى علم يصل إلى كمال ؟ إن من واجب الإنسان ومن حقه أيضا أن ينتفع بأية معرفة يصيبها مهما كانت ضئيلة يسيرة . . إن ذلك ليوسع أيضا من آفاق المعرفة ، فتزداد فائدتها ، ويعم نفعها .

وعلم النفس الذى يتصل اتصالا وثيقا بالإنسان كما بيَّنا ، لا يطيق أن يرى مأساته الخلقية ثم يقف مكتوف اليدين أمامها . لقد نشر علماء النفس ما وصلوا إليه من معرفة فامتزجت بمناح كثيرة من الحياة الإنسانية ،

وكانت بلسما لكثير من عللها وجناح رحمة ، فكم أفادت التربية من هذا العلم الحديث ، وكم أفاد الطب منه . فلماذا إذن لا تفيد الحياة الأخلاقية للفرد والمجتمع منه أيضا ؟

وكان أكثر من بحث فى الأخلاق علماء التحليل النفسى[١] . وليس من عجب فى ذلك . إذ أن التحليل النفسى بدأ أول ما بدأ ، طريقة للعلاج النفسى ، تهدف إلى أن ترفع ما فى أعماق المريض من قوى ودوافع وأفكار ونزعات ورغبات دفينة وقديمة ، حتى تظهر سافرة على مسرح حيـــاته الشعورية ، وتندمج ثانية فى تيارها ومجراها ، إذ وجد العلماء أن لهذا أثراً عظيما فى العلاج ومعنى هذا أن زيادة إدراك المرء لما يجرى فى عقله أمر مرغوب فيه ، بل إنه بمثابة وقاية له من المتاعب والأمراض النفسية ، وبعض الأمراض الجسمية . وبمعنى آخر أيضا ، إنه ليس من الصحة العقلية والنفسية فى شيء أن يتباعد ما بين شعور المرء ، والكثير من رغباته ودوافعه وعواطفه ومشاعره ، وذلك بكبتها ودفنها فى قرارة العقل الباطن ، حيث تكون هناك مثل الميكروبات الخفية تنهش فى شخصيته ، وتسمم آراءه ورغباته الشعورية ، وتلوى سلوكه وأفعاله ، وتقعده عن أمانيه وآماله ، وتجعله يستغرق فى أحلامه وخياله ، وقد تحيله إلى مجرم عتيد فى الإجرام .

إن التحليل النفسى يؤدى بالمرء لأن يجابه طبيعته ، ويحاول أن يعبر عنها ولو بالألفاظ . إنها لتماثل طريقة الاعتراف التى تتطلب من الفرد أن يفكر فى ذنوبه وخطاياه ويستشعرها ويعترف بها لنفسه أو ربه أو غيره ممن يستطيعون أن يعاونوه فى أن يشق لبواعثها بعد ذلك سبلا غير سبل الإثم والخطيئة .

---

(١) مدرسة التحليل النفسى School of Psycho—analysis لمؤسسها سيجموند فرويد Sigmund Freud (١٨٥٦ — ١٩٣٩) .

وإنها لتقف على طرف نقيض مع طريقة الضبط الخلق ، التى بها يحاول الإنسان أن يزيح عن شعوره كل الأفكار والمغريات التى قد تتعارض مع هذا الضبط . ولقد ازدادت شقة الخلاف بين التحليل النفسى والضبط الخلق عندما كشف الأول عن أمرين هامين ، أولهما : أن مكنونات العقل الباطن البعيدة عن شعور الإنسان ، غالبا ما تكون من نوع غير خلق ، أو على الأقل تتصل بما هو مناف للأخلاق ، أى غالبا ما تكون من النوع الذى يتعارض مع المعايير الأخلاقية العامة بالنسبة للمجتمع ، أو الخاصة بالفرد .

وثانيهما : أنه وجد فى العقل قوة لا شعورية فى الغالب ، تعمل على مقاومة هذه المكنونات ، ومنعها من أن تظهر فى شعور الإنسان . والتحليل النفسى بصفته طريقة ، يحاول التغلب على هذه المقاومة ، وتخفيف قوة المنع والكبت هذه إلى أقصى حد . وإذا كنا نسلم بأن مكنونات العقل الباطن هى من نوع غير خلق أو من نوع شرير ، فلا بد إذن أن تكون هذه القوة الكابتة المانعة اللاشعورية منتمية إلى النظام الأخلاقى . ومن أجل هذا أطلق عليها اسم الرقيب .

وليس من العسير الآن أن ندرك السبب الذى من أجله اتهم التحليل النفسى بأنه طريقة غير أخلاقية . أليس هدفه أن يزيل تلك القوة اللاشعورية الرقيبة على الرغبات والنزعات والأفكار ، المنافية للأخلاق حتى تتفجر هذه إلى أعلا وتصب فى شعور الانسان ؟ ماذا يبقى من الخير للإنسان بعد أن تدب تلك الرغبات والنزعات الشريرة فى حياته الشعورية ؟ ماذا تفعل به وبالمجتمع ؟ ألم يقل فرويد إن الحواجز التقليدية التى تقيمها المعايير الخلقية هى أعظم وأشد عما تتحمله الطبيعة البشرية[1] ؟ ثم ألم يكن لهذا أثر بعيد المدى لدى بعض الناس

---

(١) Collected Papers II. by S. Freud

وبعض الجماعات ، ونادى عدد من المتحمسين المبالغين منهم ، بوجوب تجنب أى ضبط أو ردع بل وأى تنظيم لدوافع الإنسان فى أثناء تنشئته ، مخافة أن يؤدى ذلك إلى كبتها ، وظهور أعراض الشذوذ والعصاب عليه نتيجة لذلك؟ ولكن المحلل النفسى يفند تلك الاتهامات، بأن يبين للناس أن مهمته الرئيسة ، هى معالجة الأمراض النفسية ، وتفهم طبيعة المشكلات والمتاعب التى يواجهها الفرد ، والتعرف على أصولها وأسبابها ، وأنه يسرد ما يراه ويقف عليه. ويقرر ما يلاحظه ويصل إليـــه ، وأنه عندما يفعل ذلك لا يخطر بباله مطلقا أن يعارض التقاليد والأنظمة الخلقية السائدة ، وأن الكشوف التى قام بها نتيجة بحوثه المستفيضة ، قد بينت فوق ذلك أن الأمراض العصبية والنفسية ليست إلا نتاج فشل فرائسها من الناس فى القيام بضبط خلقى صحيح . عما يتمخض عن عجز وشقاء وفوضى فى الاخلاق ، وأنه بصفته معالجاً ، يبذل جهده فى أن يكوّن فى المريض وجهة نظر جديدة نحو الحياة تجعله أكثر تعاونا فيها ، وأنسق انسجاما مع المجتمع وما يضمه من أنظمة وتقاليد .

إن هؤلاء الذين يستندون إلى التحليل النفسى، لينادوا بأن الكبت جميعه شر ، وأن التقاليد والآداب العامة التى تؤدى إلى بعض الكبت عرقلة فى سبيل تقدم الجنس البشرى ، إنما هم قوم لم يفهموا التحليل النفسى تمام الفهم ،ولم يتبينوا ما تنطوى عليه تعاليمه من خير للفرد والمجتمع . وليس الذنب ذنبه فى هذه الآراء المتطرفة المغلوطة التى ينادى بها هؤلاء ، والتى قد يوحى بها أيضا تابعون مبالغون لبعض مدارس التحليل ، ينظرون فى الغالب إلى الحياة نظرة فلسفية خاصة بهم (وما أكثر الفلسفات الخاصة الضارة الآن) ، لا يمكن أن يقرهم عليها أيضا علماء التحليل الأصيلين . وإلا، فما ذنب الكيماوى الذى كشف عن علاج لمريض، يرجع إلى أعضائه المقلقلة اتزانها ، وإلى صحته المختلة قوتها وسلامتها ، على أن يتناول من ذلك العلاج بمقدار ، فإذا بمتحمس أحمق،

يعطيه أضعاف المقدار المحدد مرة واحدة، فيزداد بذلك انحلال أعضائه ، وتنافر قواه الصحية ، ويزلف إليه الخراب والدمار والفناء .

حقاً لقد كشف التحليل النفسى عن أن بعض الطرق التى تتبع فى الضبط الخلق ، طرق زلقة قلقة مدمرة . وأوضح فوق ذلك بشكل لم يظهر له مثيل من قبل ، أن الضمير الإنسانى بصفته قوة من قوى العقل أو النفس ليس دائماً قوة تؤدى إلى خير كما يتبادر إلى الأذهان ، بل إنها قد تؤدى إلى شر . ذلك لأن الرقيب أو الضمير القائم على الأخلاق ، والذى هو فى صراع مستمر مع الرغبات المكبوتة المنافية لها ، ليس دائماً قوة فائزة منتصرة . وقد عرف الأخلاقيون هذه الحقيقة منذ زمن ، ولذلك اتجهت جهودهم إلى تقوية الضوابط الخلقية . ولكنهم استشعروا فى الوقت نفسه أن الرقيب قد يصل حداً فظيعاً شديداً من الضغط لدوافع الإنسان وكبتها ، حتى ليقع الإنسان فريسة لأمراض عصبية مختلفة ، بدلا من أن يزداد مناعة خلقية ؛ مثله فى ذلك مثل المدرب الذى يواصل تدريب الحيوان أو الإنسان كيما يزيده قوة ، فإذا بهذه المواصلة تنهكه وتحطم قواه ، بدلا من أن تشد أزره . وتنشط عضده ولم تكن ممارسة الاعتراف إلا دليلا ضمنياً على ضرورة اللجوء إلى التنفيس بعض الشىء عن تلك الدوافع المنافية للأخلاق ، بدلا من الاشتداد فى ضغطها والاستمرار فى كبتها ، وقد أبان التحليل النفسى عند ما اتسعت بحوثه ، أن المتاعب التى تحدث من المبالغة فى الكبت ، متاعب مؤلمة مرة ، إذ يعمل الكبت على إيجاد هوة سحيقة بين المستوى الخلق للرقيب ، وهو فى الغالب لاشعورى كما سيتبين بعد ، والمستوى الخلق لشخصية الراشد الشعورية ، وللمجتمع الذى يعيش فى أحضانه . إذ يظهر الرقيب قوة جامدة جافة بعيدة

عن عالم الواقع الراشد (١) . فقد يمنعه من ممارسة مهنته التى أعد نفسه لها ، لأنها تتصل بشكل لاشعورى بميل أو رغبة طفلية مكبوتة ؛ وقد يشعره بالحسرة والندم وتأنيب الضمير أثناء معاشرته لزوجته لأن بها شبهاً من أم أو أخت أو خالة ، كبت ميله الجنسى نحوها كبتا شديداً من قبل ، فأصبحت الزوجة بذلك صدى للذة محرمة مكبوتة يدوى من الأعماق ، فيملأ حياته الشعورية رعباً وفزعاً ، وقلقاً وجزعاً .

وكذلك تبين أن الصعوبات التى يواجهها المعالج النفسى ، والتى يجد ألا مفر من التغلب عليها حتى ينجح فى علاجه ، وحتى يستطيع أن يهيىء نفسية المريض تهيؤاً جديداً يمكنه من أن يحيا حياة سوية سعيدة ـ هذه الصعوبات لا تنشأ فقط عن الغرائز بحالتها الهمجية الملحة الصارخة ، التى تتعارض مع الأوضاع الاجتماعية والتقاليد والمثل الخلقية ، ولكنها تنشأ أيضا عن معارضة تلك القوى الخلقية الكابتة العنيدة العتيدة الجامدة ، لتلك الغرائز . وهاتان القوتان : قوة الغرائز فى حالتها الهمجية الفطرية ، وقوة الكبت الخلقية (الرقيب أو الضمير) فى حالتها الجامدة الصارمة ، تصلان إلى نوع من الاتفاق فيما بينهما ، ولكنه اتفاق غريب لا يساير الواقع فى شىء ؛ إنه لقريب الشبه بالمهادنات أو المعاهدات المراوغة الفضفاضة التى يوقعها غريمان متنافسان ، يُبيتان الشر أحدهما للآخر ، ويقف كل منهما بالمرصاد للآخر ، عابسا متجهما متحفزاً لأن يضرب ضربة مردية .

وإذا ما نجح المحلل النفسى فى أن يشعر المريض بذلك الصراع الداخلى ،

(١) إن الرقيب بصفته وريث الوالدين أو صورة لهما يفعل فعلهما من الأمر والنهى والرضا والزجر والتأنيب والعقاب دون أن يشعر الإنسان به فى الغالب ، ولذلك لا يستطيع ان يوفق بين نفسه وهذا الرقيب أو الضمير بينما يستطيع ذلك مع والديه الحقيقيين لأنه يشعر بهما وبذلك يستطيع أن يتفاهم معهما .

الذى يجرى فى أعماقه بين هاتين القوتين ، ويجعله يدرك ويلمس ذلك الجزء المنقسم من عقله ، المشطور إلى حزبين متعاديين ، يكون قد خطا بذلك خطوة واسعة فى سبيل التوفيق بينهما ؛ إذ يستطيع أن يستحث القوى التفكيرية الشعورية للمريض ، لأن تقوم بهذا التوفيق . ثم بشىء من الإرشاد والتوجيه أو مايسمى بالتربية من جديد Re-education يستطيع المحلل أن يصل بالمريض إلى حال من الاستقرار والهناءة ، إذ تنساب فى شخصيته كلتا القوتين بعد أن تصبحا وحدة متآلفة منسجمة مع شخصيته الشعورية . وبذلك تخبو تلك الحرب الضروس التى كانت تتأجج فى داخل نفسه ، دون أن يلمس مواقعها ، أو حتى يشعر بها ، بالرغم من أنه كان يكتوى بنارها ، ويحترق فيها عقلا وقلباً ، وكأنه فى جحيم أبدى وسعير سرمدى ، يلاحقه فى جميع ظروف حياته : فى عمله ، وفى مجتمعاته ، وفى زواجه ، وفى معاملته لأولاده ، بل وفى نومه وأحلامه أيضاً .

نتبين من هذا أن القوة الخلقية الكابتة فى نفس الإنسان ، أو الرقيب أو الضمير ، قد تكون مصدر متاعب له ، وأنها تقف كثيرا عقبة كأداء فى سبيل العلاج بالتحليل النفسى . بل أثبت التحليل أكثر من ذلك ، أن الضمير ليس دائما موجها كماليا أو مرشدا ملائكيا للإنسان كما يظن الكثيرون ، بل إنه قد يزخر بالفوضى والاضطراب . وقد ركز التحليل النفسى عليه بحوثا مستفيضة ألقت كثيراً من الضوء على كنهه وتركيبه ، وتفاعلاته وآثاره ، كما سنتبين ذلك فيما بعد .

تحليل النفس البشرية :

وقبل أن نأخذ الضمير بالتحليل ، أرى من الواجب أن أشير إشارة عابرة إلى طبيعة العقل أو النفس كما يراها علماء التحليل النفسى .

إن العقل أو النفس تنقسم نظريا إلى ثلاثة أقسام : الذات السفلى أو Id

وهى التى يزود الإنسان بها فى الحياة ، وتحوى غرائزه فى حالتها الهمجية الوحشية ، وهى منبع نشاطه الحيوى ، ومصدر جميع طاقاته ، وهى عمياء من الناحية الاجتماعية ، لا تعرف خيرا أو شرا ، ولا تميز بين صلاح وطلاح ؛ كل همها أن تصل إلى هدفها ، محكومة فى ذلك بمبدأ اللذة . أى أنها تأتى باللذة إن تحققت أهدافها ، وبالألم إن وقف فى سبيلها عائق . فإن أثيرت غريزة المقاتلة فى الطفل الصغير الذى يتحكم فى سلوكه هذا النوع من النفس فى الغالب، دفعت به لأن يهدم ويحطم ويدمر ويقتل ، وإن أثيرت فيه الغريزة الجنسية أرغمته على أن يحققها بأى شكل ومع أى شخص ، وإن أثيرت فيه غريزة الامتلاك أو الاقتناء اضطرته لأن يخطف ويأخذ ما أثارها مهما كان ، لا يهمه فى ذلك أحد ، ولا يعتبر أى وضع أو حكم أو قانون .

ولكن سرعان ما يستشعر الطفل أنه يعيش فى هذه الحياة ، وأنه جزء من هذا العالم الذى يؤثر فى حواسه ، ويستقبل منه انطباعات مختلفة تأتى إليه من جسمه أولا ثم من محيطه وبيئته ، وتتحكم فى حركاته الإرادية وتضبطها . وبذلك يبدأ جزء من الذات السفلى يتصل بهذا العالم الواقعى الذى يعيش فيه. ويتكون نتيجة لذلك ما يعرف بالذات أو ego . وهذه الذات معقولة بالنسبة للذات السفلى ، إذ تسير على مبدأ الواقع والحقيقة ، لا على مجرد مبدأ اللذة. ولذلك قد يرجىء الطفل اللذة العاجلة ، بإرضاء غرائزه مباشرة كما تريده الذات السفلى أن يفعل ، إلى لذة آجلة ، إن وجد أن الأولى قد يتبعها ألم ، أو قد تتعارض مع عالم الواقع الذى يعيش فيه . فقد يثير الأب فى الطفل غريزة المقاتلة ، إن عاقه عن تحقيق غرض له ، ولكنه يدرك ضآلة قوته ، وضعف حيلته بالنسبة لأبيه ، فلا يستطيع أن يحقق الغريزة بحالتها الهمجية ، من حيث إلحاحها عليه أن يعتدى على أبيه بالضرب مثلا ، فيفكر فى شكل من الاعتداء

يتناسب مع الواقع الذى يدركه ويستشعره ، قد يكون على شكل صراخ مزعج ، أو تدمير لشيء مقدّر من أبيه ، أو تحايل على تحقيق غرضه بشكل لا يثير الممانعة من أبيه .

وتستمد الذات قوتها ونشاطها من الذات الدنيا . ولذلك فهى تعمل جهدها على أن توفق بين مبدأ الحقيقة والواقع الذى يجب أن تسير عليه ، ومبدأ اللذة الذى يتحكم فى الذات السفلى . أى أنها تحاول أن ترضى الغرائز كما تريد الذات السفلى ، ولكن بطريقة معقولة تتفق مع الواقع والحقيقة . وقد صُورت العلاقة بين هاتين الذاتين بالعلاقة بين الحصان والفارس ؛ فالأول مصدر الحركة ، ومنبع النشاط ، ومدّخر القوة والطاقة . ويعمل الفارس لكى ينتفع بذلك النشاط وتلك القوة على أن يترك للحصان العنان، يجرى ويمرح ؛ ولكنه يقوم بتوجيهه بالطريقة التى يراها متمشية مع الواقع ، فيبتعد به عن العثرات والحفر ، والسبيل الوعر .

حقا ، قد يجمح الحصان بصاحبه فيتلاشى سلطانه عليه ، ويسير الحيوان به كيفما يشاء ،فنجد الذات السفلى تخضع الذات لسلطانها فى بعض الأحايين ، وإذا بالإنسان يندفع لإرضاء غرائزه الهمجية دون وعى منه ، ودون مقدرة على كبح جماحها ، أو صدها عن غيها ، وإذا به يدب دبيب الأعمى فى الحياة ، لا تبصر ولا تعقل ولا اتزان ، وإذا به مجرم يتلذذ من إجرامه ، وينتشى من ارتكاب أفظع أنواع الفحش والخطايا .

على أن الأمر لا يقف عندهذا الحد ، إذ تجد الذات نفسها محكومة بقوى خارجية تتمثل أولا فى الوالدين ، فهما يريدان الطفل أن يفعل شيئا ولا يفعل شيئا آخر ،وهما يتحكمان فى سلوكه وأفعاله . فهو يجب أن يكون نظيفاً،ويجب ألا يعتدى على إخوته، بل يجب أن يحبهم، ويجب ألا يكون قاسيا على صغار

الحيوانات والطيور، بل يرأف بها و يشفق عليها ؛ ويجب أن يذهب إلى فراشه فى وقت معين ؛ ويجب ألا يملأ المنزل ضجيجا ، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهى التى يصدرها الوالدان دائما أبداً للطفل ،ويستعملان فى استدراجه لتنفيذها كل أنواع الإغراء والتهديد .

وإذا بذات الطفل تشرب سلطان الوالدين ، وتتقمص منهما شخصيتهما المتسلطة المتفذة . وبذلك يتحول جزء من الذات إلى ما يسمى بالذات العليا أو Super-ego ، التى يمكن أن نعتبرها ممثلة لسلطان الوالدين . وإذا بهذه الذات العليا تتحكم فى الذات من الداخل بدلا من تحكمها فيها عن طريق الوالدين من الخارج، كما كان يحدث من قبل . وإذا بالطفل يدرك فى نفسه ومن نفسه ما يجب أن يفعله وما يجب أن يتجنبه . وإذا به ينفذ أوامر الذات العليا تنفيذا جامدا ، فيستشعر الرضا إذا ما عمل تبعا لأوامرها ،ويستشعر السخط عن طريقها ، أو يقاسى عقابها إذا ما خالفها .

وتنمو الذات العليا بنمو الطفل وزيادة السلطات التى تتحكم فيه ، إذ يشرب التعاليم الخلقية ، والتقاليد السائدة ، والنظم الاجتماعية ، وأحكام الدين وغير ذلك . وتصبح أقرب شبهاً بما نسميه الضمير ، الذى يصدر عنه ما يعرف بالشعور بالذنب أو الخطيئة Sense of guilt إذا ما قام الإنسان بما يخالفه . وقد يتطور هذا الشعور بالذنب إلى حالات من القلق النفسى المريع ؛ بل قد يمرض الإنسان تكفيراً للذات عما جنت وارتكبت ضد الضمير .

ويختلف تكوين الضمير من شخص لآخر تبعاً لظروف طفولته، ونوع التربية التى تلقاها ، والمعاملة التى عاناها . وهو تكوين لا شعورى فى أغلبه . أى أن المرء لا يشعر به فى الغالب ، بالرغم مما له من كبير الأثر فى توجيه سلوكه : وإثارة قلقه ، ومقاساته تعذيبه ،وإنهاكه لأعصابه ،وإخلاله بصحته .

ومن أجل ذلك وصفناه من قبل بأنه قوة جافة جامدة عتيدة . ولا يقتصر أثر الذات العليا أو الضمير أو الرقيب على كونه حاكما داخليا ، ومنظما باطنيا ، ومسيطراً خفيا على سلوك الإنسان وأفكاره ورغباته ، بل إنه يقف قوة رقيبة على دوافع الإنسان المتصارعة فى ذاته ، وحَكما متنفذاً بين رغباته المتضاربة . فكثيراً ما تقاسى الذات المسكينة من حروب حامية تدور رحاها فى داخلها ، فحب يصارع حبا ، ورغبة تعارض رغبة أخرى وهكذا ؛ فتعمل الذات العليا على فض هذا الصراع والنزاع، وذلك بتنحية ما ترى وجوب تنحيته ، وإبعاده عن الذات الشعورية ، وإسقاطه فى مكمن خفى من العقل . وبذلك يتكون فى ذات المرء عقل باطن أو لاشعور جديد مكتسب غير طبيعى له قوته ، وفيه طاقته ونشاطه ، وله أثره أيضاً فى سلوك الإنسان وأفكاره وشخصيته الشعورية بوجه عام .

وهكذا نرى أن النفس الإنسانية ثلاثة أقسام : نفس سفلى لا شعورية تحوى الغرائز بحالتها الهمجية الوحشية ، ونفس واقعية تتكون من اتصال النفس السفلى أو الذات السفلى بالواقع وعالم الحقيقة ، ونفس عليا أو ذات عليا وهى ما يمكن أن نسميها بالرقيب أو الضمير ، وتتكون نتيجة اتصال الذات بالقوى المسيطرة المتحكمة فى المرء من الخارج ، وامتصاص جزء من الذات لهذه القوى ، أو تقمصها إياها بحيث تصبح قوة رقيبة محاسبة داخلية لاشعورية فى الغالب .

ومن هذا نجد أن النفس البشرية بأقسامها الثلاثة ، أو مظاهرها الثلاثة ، نفس معقدة التعقيد كله . وأنها منذ بدء وجودها بطبيعتها، وهى فى حالة همجية وحشية ، تحتاج إلى أن يتناولها بالتربية والتهذيب أيد صالحة ، وعقول متيقظة متفهمة إلى حد غير قليل بالطبيعة البشرية ، خصوصا فى السنوات الأولى من

حياة الناشىء . ومن أجل هذا ينادى المربون بضرورة تعليم الفتيات وهن أمهات المستقبل ، اللاتى سيقع عليهن هذا العبء الثقيل أكثر من الآباء ، وأكثر من أى شخص آخر ، ينادون بضرورة تعليمهن شيئا غير قليل عن النفس البشرية ، وعن كيفية تهذيبها وإحداث التوافق والانسجام بين أقسامها ومظاهرها ، فى أثناء تطورها وتوالدها من النفس الأولية ، أو ما سميناها بالذات السفلى .

وليس هذا التحليل للنفس البشرية ببدعة جديدة أو كشف فريد أتى به علم التحليل النفسى ، ولكنا نجد شيئا قريبا من ذلك فى الكتب السماوية وفى أقوال الفلاسفة [1] والشعراء كما نجد أن تحليل النفس لدى علماء النفس المعتدلين يكاد يتقارب مع ما أبداه علماء التحليل النفسى ، بالرغم مما يتراءى لنا من سعة شقة الخلاف بينهم فى غير ذلك من الآراء .

فالقرآن الكريم يتحدث عن أنواع مختلفة من الأنفس كما يتبين من الآيات الآتية :

(١) « وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » .

والنفس هنا هى النفس السفلى .

(٢) « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ».

ويتبين أن النفس المذكورة هنا هى النفس العليا .

(٣) « إن كل نفس لما عليها حافظ » .

النفس هنا هى النفس الواقعية أو الذات ، والحافظ هو الرقيب أو الضمير

---

(١) الكتاب الرابع من جمهورية أفلاطون ملىء بمناقشة بديعة لتقسيم الروح إلى أقسام ثلاثة تكاد تشبه التقسيم الذى ذكرناه .

(٤) « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » .

وقد جمعت هذه الآية بين الذات والنفس السفلى والنفس العليا .
ويلاحظ الترتيب فى ذكر القوتين المؤثرتين على الذات ، فقد بدأ القرآن الكريم بالنفس السفلى (فألهمها فجورها) وهى النفس الوراثية المكونة من الغرائز فى حالتها الهمجية ،وهى أولى أنواع النفس وجودا لدى الإنسان،ثم ذكر بعد ذلك النفس العليا وهى التى تتكون فيما بعد كما سبق أن وضحنا .

وقال ابن حزم « إذا لم يكن للمرء من سوء فعله ما يؤنبه عليه ضميره ، أمكنه أن ينام ملء عينيه هادئا مستريحا ولو جعلوا فراشه من شوك القتاد» .

هنا نجد الكلام عن الضمير أو الذات العليا واضحا كما نجد فى كلمة «سوء فعله » معنى ضمنيا للذات والذات السفلى .

وكذلك نجد أنواع النفس واضحة فى شعر الشعراء مثل :

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

* * *

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علىّ رقيب

* * *

والنفس من خيرها فى خير عافية والنفس من شرها فى مرتع وخم

ولو نحن درسنا بحوث علماء النفس المعتدلين وعلى رأسهم مكدوجل ، واضع أسس علم النفس الاجتماعى ، وجدناهم يتحدثون لنا عن أربع مراحل للسلوك البشرى

أولاها : مرحلة السلوك الغريزى ويحدث التعديل فيه عن طريق اللذة والألم اللذين يخبرهما المرء فى أثناء تحقيقه لغرائزه الحيوانية .

والثانية : مرحلة تعديل السلوك الغريزى عن طريق الثواب والعقاب اللذين يوقعهما المجتمع على الفرد .

والثالثة : مرحلة ضبط السلوك عن طريق توقع مدح المجتمع أو لومه .

والرابعة : مرحلة السلوك الراقى الذى يقوم على أساس من مثل عليا تدفع الإنسان لأن يسلك السلوك الذى يراه صحيحاً ، بصرف النظر عن مدح المجتمع أو لومه . (١)

أما المرحلة الأولى فهى تشابه تماماً مرحلة انسياق الإنسان فى أول عهده بالحياة وراء الذات السفلى التى تكلمنا عنها .

والمرحلة الثانية تشابه مرحلة تكوين الذات ، نتيجة اتصال جزء من الذات السفلى بالحياة الواقعية التى يعيش فيها الإنسان . إذ أن تعديل السلوك الغريزى عن طريق الثواب والعقاب ، اللذين يوقعهما المجتمع ، كما يرى مكدوجل ، يتضمن بدء شعور الإنسان بذاته ، وتهيء هذه الذات لحياة الواقع والحقيقة .

والمرحلة الثالثة مرحلة انتقال بين الذات والذات العليا أو الضمير ، إذ تتضمن اتخاذ الذات مثلا لها من المجتمع الذى تتأثر به ، ومحاولتها أن تشكل نفسها على شاكلته وتسير على هديه ؛ كأن يتخذ الطفل أباه أو أمه أو كليهما مثلا له ، وبذلك يتوقع مديحهما إن سلك سلوكا يرتضيانه ، أو لومهما إن ابتعد فى سلوكه عما يتطلبانه . ويهتم التحليل النفسى بهذه المرحلة التى يتبعها

---

(١) يمكن الرجوع فى ذلك إلى الباب السابع من كتاب :
Social Psychology By W.Mc'Dougall
الذى يتكلم فيه عن « نمو الشعور بالذات وعاطفة اعتبار الذات » .

مرحلة تكوين الضمير ، ويعتبرها أهم عامل فى تشكله وتركيبه ، ويسميه عامل الذات المثلى ego-ideal وسيأتى الكلام عنه بالتفصيل فيما بعد .

والمرحلة الرابعة التى يتكلم عنها مكدوجل ، والتى حين يصلها الفرد ، يبدأ يتصرف ويسلك سلوكه تبعا لمثل عليا عنده ، دون اعتبار لمدح المجتمع أو لومه ، تشبه تكوين الذات العليا أو الضمير لدى جماعة التحليل النفسى ، حين يتمثل الفرد ذاته المثلى أو مثله من المجتمع ،وخصوصا من والديه اللذين هما ألصق الناس به ، وأشدهم تأثيراً فيه .

ويعترف مكدوجل باتفاقه فى آرائه عن النفس البشرية مع آراء جماعة التحليل النفسى ، إذ يقول فى كتابه التحليل النفسى وعلم النفس الاجتماعى Psycho-analysis & Social Psychology (ص ١٠٤ من الطبعة الثانية سنة ١٩٣٧) ما يأتى :

«ليس هناك اختلاف يستحق الذكر بيننا فى ذلك ، (أى فى تقسيم النفس) .

وفى هامش الصفحة نفسها يبين أنه وفرويد متفقان إلى حد كبير ،ولو أنه يصوغ كلامه فى صيغة لاذعة فيقول «إذا قرأ أى شخص ملم بكتابى علم النفس الاجتماعى» صفحتى ٩٠ ، ٩١ من كتاب فرويد «محاضرات تمهيدية جديدة فى التحليل النفسى » طبعة (١٩٣٣) فإنه يدرك بسهولة فى تلك الفقرة تكراراً مركزاً متضمناً لآرائى الرئيسية فى كتابى هذا الذى نشرته فى سنة ١٩٠٨ . إننى لا أتهم فرويد هنا بقراءته كتابى « علم النفس الإجتماعى » . إننى واثق أنه لم يقرأه ؛ ولكنى مسرور لأنه يكون ببطء آراء مماثلة لآرائى عن أهم المشكلات فى علم النفس الاجتماعى » .

الضمير الإنسانى :

وسنقصر بحثنا على الذات العليا أو الضمير مبينين كيف يتكون ، وكيف يؤثر فى سلوكنا ، ومتخذين من ذلك عبرة تنفعنا فى تكوين أخلاق الناشىء . وأرجو أن يتذكر القارىء ما سبق أن أوجزت فى تحليل النفس البشرية . نستطيع أن نميز فى تكوين الضمير أربعة عوامل أساسية نلخصها فيما يلى:

١ — الذات المثلى Ego-ideal.

وتنشأ من أن طاقة الإنسان الحيوية المستمدة من غريزة الحياة العامة[١] بحالتها الفطرية ، هذه الطاقة الحيوية ، أو قل هذا الحب للحياة ، لا يتصل فقط بالأشياء الخارجة عن ذات الإنسان ، ولكن جزءا منها يتجه نحو الذات . فكل فرد منا يحب نفسه ، كما أنه يحب غيره من الناس . وهذا ما يسميه علماء التحليل النفسى بالطاقة النرجسية أو الحب النرجسى[٢] .

---

(١) نواة غريزة الحياة عند علماء التحليل النفسى هى الغريزة الجنسية لأنها الغريزة التى تدفع للتناسل واستمرار الحياة . ولذلك اهتم بها علماء التحليل اهتماما كبيرا أدى ببعضهم إلى المبالغة فى اعتبارها مصدر الطاقة الحيوية عند الفرد ، وبنوا على ذلك آراء متطرفة نجدها فى بعض بحوث فرويد وأتباعه. ولكى يأخذ القارىء فكرة مبسطة عن ذلك، يمكن أن يرجع إلى كتاب «التحليل النفسى للاطفال» تأليف « أنا فرويد » وتعريب المؤلف .

(٢) الكلمة الانكليزية للحب النرجسى أو حب الإنسان لذاته هى Narcissism وهى مشتقة من كلمة Narcissus أو نرجس ، وهو تبعا للاسطورة الأغريقية ، اسم لابن إله النهر ، كان يمتاز بجمال فاضح وقد أحبته الحورية Echo « إكو » ولكنه رفض حبها ولم يعرها أى أهتمام فغضبت الآلهة عليه . وفى مرة من المرات رأى نرجس صورته منعكسة من عين ماء فأغرم بالصورة وهام بنفسه هياما شديدا أضناه وأفناه ، وظهرت زهرة النرجس فى المكان الذى مات فيه .

والأصل فى هذه الأسطورة ، الخرافة التى كانت شائعة لدى الاغريق ، وهى اعتقادهم فى أن رؤية الانسان فى حلمه لصورته منعكسة من الماء ، نذير بموته .

ويتطور حب الإنسان لذاته ، وينشطر شطرين ، شطر يتصل بذاته الحقيقية كما هى . فكل إنسان يحب نفسه على ما هى عليه ، ولكنه باحتكاكه بالحياة الخارجية ، ومقارنة ذاته بالذوات الأخرى التى حوله ، سرعان ما يشعر بأن ذاته ناقصة قاصرة فى كل ناحية : فى الناحية الجسمية والعقلية والخلقية ؛ فينسج من خياله ذاتا مثلى يود ويطمح أن تكون هى ذاته الحقيقية . ويتصل بهذه الذات المثلى الشطر الآخر من حب الإنسان لذاته الذى أشرنا إليه من قبل . وهذه الذات المثلى أو ego-ideal هى أول العوامل فى تكوين الذات العليا أو الضمير وأهمها . وسنرجع إليها بشىء من التفصيل فيما بعد .

٢ — والعامل الثانى فى تكوين الذات العليا هو عملية امتصاص أو تمثل أو تقمص لما عليه الآخرون من أخلاق وصفات ، وخصوصاً الوالدين اللذين يتحكمان فى الطفل ويسيطران على سلوكه وتصرفاته ، أو من يقوم مقامهما فى ذلك . ومن ثم يصبح الشكل الذى عليه الوالدان أو غيرهما من من الأشخاص ذوى النفوذ والسلطان علينا وذوى التأثير العظيم فينا أثناء طفولتنا ، يصبح هذا الشكل بعد أن نتمثله — وهو الصورة الأولى لذاتنا المثلى — جزءاً من تركيبنا النفسى أو العقلى ، وكأنه طبيعة ثانية لنا[1] . وبواسطة هذه العملية ، تتوارث المعايير الخلقية والتقاليد الاجتماعية من جيل إلى جيل ؛ إذ أن هذا التركيب الداخلى الذى تمثلناه من المتنفذين المسيطرين علينا ، علاوة على تأثيره فينا ، فإنه ولا شك يؤثر أيضا فى أبنائنا فيما بعد ، فيتمثلونه إلى

---

(١) يمكننا أن نشبه عملية التقمص هذه بعملية التقليد اللاشعورى التى بها يحاكى الطفل والديه أو المتنفذين فيه فيتكلم ويمشى ويتصرف كما يتكلمون ويمشون ويتصرفون ، ويأخذ عنهم آراءهم وأفكارهم وعقائدهم ، ويشرب بعواطفهم ومثلهم ، ويصبح كأنه نسخة مصغرة منهم .

درجة كبيرة كما تمثلناه نحن عن والدينا . ولهذا فغالباً ما تبقى المعايير والتقاليد والقيم الخلقية ثابتة مستمرة إلى أمد كبير .

٣ — والعامل الثالث فى تكوين الذات العليا قسوة ناشئة عن مشاعر عدوانية طبيعية . فكثير من الأشياء الخارجية حول الطفل ، ومنها الوالدان تقف عقبة فى سبيل إرضاء رغباته ودوافعه ، وبذلك تثير فيه الغضب والعدوان،فيحاول التغلب عليها ، ومحوها من طريقه ، حتى يحقق بذلك رغباته ودوافعه . ولكن غالبا ما يكون عدوان الطفل فاشلا لسببين هامين : أولهما ، أنه ضعيف الحيلة ، محدود القوى إزاء تلك العقبات . وثانيهما ، أن بعض هذه العقبات أو معظمها فى حياة الطفولة الأولى ، تتمثل فى الوالدين أو من يقوم مقامهما ، وهم الذين يحنون فى الوقت نفسه على الطفل، ويعطفون عليه ويحبونه ، وهم أيضا سنده وعماده فى الحياة . فإن هو عبر عن مشاعره العدوانية نحوهم بشكل واضح ، كأن شتمهم أو ضربهم ، أو دمّر شيئا من متاعهم ، فإنهم يوقعون عليه العقاب، إما بالضرب ، أو بسحب عطفهم عليه ، والوقوف عن حبهم له . حقا إن من مآسى الحياة الكبرى أن يضطر الإنسان لأن يكره من يحبهم حبا عميقا[١] . وإن هذه المأساه لتبدأ من الطفولة الأولى . ونجد مظاهرها فى الرضيع حين يعتدى على أحب شىء لديه ، وأعز موجود عنده ، فيعض أمه فى ثديها الذى يشبعه من جوع ، ويرويه من ظمأ ، ويمده بالرضا والهناءة — وإنها لتستمر طول الحياة فى الصلة بين ذاته وذاته العليا

---

(١) لقد عبرت الكتب السماوية عن هذه المأساة الانسانية فجاء فى القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » سورة «التغابن» : كما جاء فى انجيل متى فى الاصحاح العاشر فقرة ٣٦ :
« وأعداء الانسان أهل بيته ».

التى تتجه إليها عاطفتا الحب والكراهية ، كما تنبعثان منها أيضا .

ما ذا يفعل الطفل الصغير عندما يجد نفسه عاجزاً فى كثير من الأحايين ، عن أن يعبر فعلا عن كراهيته لوالديه ، فيعتدى عليهما عند ما يقفان حاجزاً منيعاً بينه وبين رغباته ؟ إنه لا يستطيع أن يحول عدوانه نحو أخ له فيوسعه ضرباً ، أو نحو قطته فيرفصها أو يلقمها حجراً ، أو نحو بعض المتاع فيعمل فيه تدميراً وتحطيما ، كما يستطيع أن يفعل عند ما يكبر ويشتد ساعده . ليس أمامه سوى ذاته هو ، يصب عليها جام غضبه ، وينفذ فيها دافع العدوان الذى يملؤه : إنه ليشد شعره ، ويخدش وجهه ويلطم رأسه ، ويعض لسانه أو يده . وإن الإنسان ليقوم بذلك طول حياته . فكم من المرات يشتم الراشد نفسه ، وينعتها بالغباء ، ويتمنى لها الموت ، وكم يدق على صدره دقاً مبرحاً ، أو يصفع وجهه صفعا مجرحا [١] .

وفى الغالب يبدأ هذا العدوان الذى تثيره الحياة الخارجية ، وخصوصا الوالدان أو من يمثلهما — يبدأ يتجه نحو الذات فى المرحلة من الحياة التى تحدث فيها عملية الامتصاص أو التمثيل أو التقمص التى أشرنا إليها من قبل . فالطفل يتمثل الوالدين الآمرين الناهيين فى نفسه ، فيصبحان جزءاً من عقله أو نفسه فى صورة الذات العليا أو الضمير . وبذلك يتلقى الأوامر والنواهى من ذلك الجزء من العقل . وفى الوقت نفسه ، يتحول عدوان الطفل ضدهما إلى ذاته . وتمتزج العمليتان معـا : عملية التمثل ، وعملية تحول العداء نحو الذات . وينتج عن هذا التمازج أن يتصل العداء بالذات العليا ، وكأنه صادر

---

(١) يشاهد هذا أيضا فى كثير من الأمهات . فنى بعض الأحيان عندما يذنب الطفل ، تتحول المشاعر العدوانية للأم ضده نحو نفسها . فبدلا من أن تعاقبه ، فإنها تعاقب نفسها بأن تلطم وجهها أو تشد شعرها أو تتألم وتبكى ألما كأن عقابا قد وقع عليها .

عنها . وبذلك تصطبغ الذات العليا الممثلة للوالدين المتنفذين داخل العقل ، بالعدوان الراجع إليهما بالطبيعة بصفتهما عاملين رادعين ، وسدين منيعين ، يقفان فى وجه الطفل عند محاولته تحقيق الكثير من رغباته . ويشد أزر الذات العليا فى عدائها وعدوانها ضد الذات ، دوافع العدوان فى الطفل نفسه ومن أجل هذا وغيره ، تصبح الذات العليا أو الضمير ، أشد بأسا وأفظع قسوة وأشنع عدوانا من الوالدين الحقيقيين .

٤ — أما العامل الرابع فى تكوين الذات العليا أو الضمير ، فإنه يتصل بعض الاتصال بالعامل السابق ، وهو وجود الدوافع العدوانية لدى الذات العليا أو الضمير تجاه الذات — وهذا العامل الرابع هو الميل لاستشعار اللذة من التحكم والإيلام لمجرد التحكم الإيلام ، زيادة على التحكم والإيلام والقسوة التى تصحب الدوافع العدوانية التى تكلمنا عنها من قبل . أى أن هناك ميلا لدى كل إنسان ، يجعله يتلذذ من أن يؤلم ويقسو لمجرد الإيلام والقسوة ، وفى الوقت نفسه يتألم ويقاسى لمجرد الألم والمقاساة . وقد سمى هذا الميل ، بالميل الماسوشى — السادى .

والكلمة الأولى مشتقة من اسم للكاتب النمساوى فون ساشر ماسوش Von Sacher Masoch الذى جعل كثيراً من أبطال رواياته يتلذذون من الآلام والمقاساة . والكلمة الثانية مشتقة من اسم الماركيز دى ساد Marquis de Sade الروائى الفرنسى ، الذى كان يصور أبطاله بحيث يتلذذون من أن يقسو على الغير ويؤلموهم . وقد كان هو فى حياته الخاصة بالغاً فى القسوة ، واتهم بجريمة قتل . وليس من شك فى أن هذين الميلين فى كثير من الأحايين ، يصطبغان بصبغة جنسية ، وقد فسرهما فرويد فى ضوء تقسيمه لدوافع الإنسان

إلى قسمين رئيسين : دوافع الحياة Eros ، ودوافع الفناء أو الموت Thanatos . وبيّن أنهما نتاج امتزاج هذين النوعـــين من الدوافع ؛ أو بمعنى آخر نتاج امتزاج الدوافع الجنسية بمعناها الواسع مع دوافع التدمير فى الميل السادى ، وامتزاج الدوافع الجنسية مع دوافع الاستسلام للتدمير فى الميل الماسوشى .

وفسرهما مكدوجل على ضوء إرضاء الغريزة الجنسية وغريزة السيطرة معا فى حالة الميل السادى ، وإرضاء الغريزة الجنسية وغريزة الاستكانة أو الخنوع معا فى حالة الميل الماسوشى .

ومهما كان الأمر فى تفسير تركيب كل من هذين الميلين ، فليس من شك فى أن توقيع العقوبة من الخارج على الإنسان ، يتضمن إرضاءاً للميل السادى والميل الماسوشى إلى حدما . والمفروض أن العقوبة ركن من أركان النظام الأخلاقى ، وأنها تصدر عن المتنفذين المتحكمين ، من الوالدين فى أول الأمر المسيطرين على الطفل ، إلى المربين والهيئات التشريعيـة والإدارية والقوة الإلهية . فعندما يتمثل الطفل والديه بالشكل الذى سبق أن وضحناه ، فإنه يتمثل أيضا ميلهما السادى ، الذى يصبح بذلك عاملا من عوامل الذات العليا أو الضمير ، يجعله يقسو ويعاقب الذات من داخل النفس . وبذلك لا يتحكم الضمير فقط فى الذات فيأمرها وينهاها ، ويزجرها ويردعها ، بل إنه يعاقبها ويوجعها أيضا . وتستشعر الذات شيئا من اللذة فى هذا العقاب الذى يوقع عليها إرضاء للميل الماسوشى . وكأن فى ذات كل فرد منا رغبة فى أن تعاقب وتتألم .

قد يبدو هذا أمراً غريبا ، ولـكن لو نحن خصنا فى خبراتنا الخاصة لزالت هذه الغرابة ، فـكم من امرىء يطحن عينيه بيديه ، ويستشعر اللذة من الألم

الناشىء عن ذلك الطحن . وكم من شخص ينتشى من أن يعض غيره أو يضربه ، أو من أن يتناوله الغير بالعض والضرب . وإن أمثلتنا الشعبية وأغانينا وأشعارنا المليئة بالاعتراف بلذة الإيلام والتألم . والمثل فى ذلك ما يأتى :

(ا) ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب

(ب) حسدونى وباين فى عينيهم   من عطفك وحنانك لىّ
وعذابى فى هواك يرضيهم   وياريتك بتعذب فىّ

هنا يفضل الشاعر نشوة العذاب فى الحب على نشوة العطف والحنان المجرد .

(ح) لحرقنا نفوسنا   فى جحيم من القبل

يقرن الشاعر هنا لذة القبل بالجحيم والاحتراق .

(ى) علائم المقاساة من الآه والواه والآى ، والأف وغير ذلك ، التى تمتلىء بها بعض الأغانى والتى تصطبغ بأكبر نشوة وأعظم لذة .

(هـ) قول الشاعر :

مر مامر بى لأجلك حلو   وعذابى من أجل حبك عذب

* * *

أو ريم على القاع بين البان والعلم   أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم
لما رمى حدثتنى النفس قائلة   ياويح جنبك بالسهم المصيب رمى
جحدتها وكتمت السهم فى كبدى   جرح الأحبة عندى غير ذى ألم

و — ثم تلك النشوة فى تقطيع الأصابع التى وصفها القرآن الكريم فى سورة يوسف فى هذه الآية :

« فلما سمعت بمكرهن ، أرسلت إليهن ، وأعتدت لهن متكئاً وآتت كل

واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ماهذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » .

فالنشوة ظاهرة فى تكبيرهن ليوسف « فلما رأينه أكبرنه » . وهى نشوة حسية ولا شك ، غلبت عليهن حتى قطعن أيديهن ولم يشعرن بألم التقطيع . بل ظلت النشوة غالبة عليهن أثناء تقطيعهن لأصابعهن كما يتبين من ترتيب الحوادث فى الآية ، « وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » (١)

هذه هى العوامل الأساسية التى تتدخل فى تكوين الذات العليا أو الضمير . وليس هنا مجال مناقشة كل عامل منها على حدة ، فسيأتى الكلام على ذلك فى سياق الأبواب التالية . ولكن لما للعامل الأول ، وهو تكوين الذات المثلى أو المثل من أهمية خاصة ، فسأتكلم عنه بشىء من التفصيل فى الباب التالى مع الإشارة إلى العامل الثانى وهو تمثل الذات للذات المثلى .

---

(١) الدليل على أن النشوة التى شعرت بها النساء كانت حسية ، الآية الواردة فى السورة نفسها ، « فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه . . » .

الباب الثاني

المثل العليا وتكامل الضمير

تكلمت فى الباب السابق عن أربعة عوامل تتدخل فى تكوين الضمير الإنسانى ، هى : (أولا) الذات المثلى أو المثل التى يستشعرها المرء فى المتنفذين فيه ، والتى يطمح فى أن تكون ذاته على صورتها وشاكلتها . و (ثانيا) : تمثله هذه المثل أو ماسميناها بالذات المثلى حتى تصبح جزءاً من نفسه ، ونواة ذاته العليا أو ضميره . و(ثالثا) : المشاعر العدوانية التى يستشعرها المرء فى طفولته نحو والديه وهما أول المتنفذين فيه . وذلك عندما يقفان سداً منيعا أمامه يعوقانه عن تحقيق رغباته ، وإرضاء غرائزه ، وتحول هذه المشاعر نحو ذاته هو ، فى الوقت الذى يتمثل الوالدين ذاتا مثلى له ، وذلك لضعفه وعجزه عن أن يحقق دوافع تلك المشاعر العدوانية فى والديه . وبذلك تصطبغ الذات العليا بهذه المشاعر ، فتنطوى على شدة وبأس وقسوة . و (رابعا) : الميل لاستشعار اللذة من التحكم والسيادة والإيلام لمجرد الإيلام ، وما يتصل به أيضا من استشعار اللذة من أن تتحكم ذات الإنسان و يقسى عليها ، وتؤلم . وهذا يزيد فى قسوة الضمير وشدته وبأسه .

وذكرت أنه لأهمية العامل الأول فى تكوين الضمير، رأيت أن أفرد له هذا الباب الثانى من الكتاب . أما العامل الثانى فسيأتى الكلام عنه أيضا فى هذا الباب لصلته الوثيقة بالعامل الأول .

الذات المثلى :

ليس التحليل النفسى فرداً فى تبيانه أهمية هذا العامل فى تكوين الضمير. فعلماء النفس على اختلاف مذاهبهم ، وعلماء الأخلاق ، اتفقوا جميعا على

ذلك ، بل إنهم جميعا متفقون على أهمية العامل الثانى فى تكوين الضمير ، ألا وهو امتصاص وتقمص الطفل صفات المسيطرين عليه وخصوصا الوالدين .

فلو أخذنا مكدوجل مثلا ، وهو عالم نفسى من العلماء الأرثوذكسيين المعتدلين ، الذى كان لنظرياته وآرائه عن طبيعة الأخلاق وتطورها ، صدى عظيم فى علم النفس الحديث ، نجد أنه يضفى أعظم أهمية على تكوين عاطفة فى الإنسان يسميها عاطفة اعتبار الذات . وهى تنشأ عن إدراك الطفل لذاته الخاصة منفصلة عن الذوات الأخرى أو الشخصيات الأخرى التى تحيط به ، والتى عليها تتوقف فكرته عن ذاته . ويبدأ الطفل يهتم بأنواع السلوك الذى يقوم به الآخرون تجاهه ، والذى يعبر عن سخطهم عليه أو رضاهم عنه ؛ إذ يتوقف على ذلك السلوك شقاؤه أو سعادته . وبذلك يتعلم أن يأخذ بوجهة النظر الخلقية لهؤلاء حتى يكسب رضاهم ، ويتجنب لومهم وسخطهم . ويشيد لنفسه مستوى من السلوك ، يحاول أن يصل إليه ، مماثلا لمستوى سلوك الآخرين . وكأن هذا المستوي مثلا له ، يستشعر تدريجيا الرضا عنه ، ويعين نوع عاطفة اعتبار الذات التى تتكون عنده . وكأن هذه العاطفة تصبح مشحونة بالمثل التى تكونت لديه بأخذه إياها عن الغير ، وخصوصا عن أقرب الناس إليه ، وأشدهم صلة به . فإذا ما عمل تبعا لما تتطلبه هذه المثل رضى عن نفسه ، وإذا خالفها استشعر السخط والضيق .

فعاطفة اعتبار الذات ، هى إذن فى نظر مكدوجل ، قوة أقرب ما تكون إلى ما نعرفه بالضمير — هى التى تنظم سلوك الإنسان ، أو على الأقل ، إنها تجعله يحكم على سلوكه فيرضى عن نفسه ، إن كان سلوكه قريبا من المستوى الذى رسمه وحدده ، موجها فى ذلك بمستوى سلوك الآخرين ، وخصوصا

الوالدين فى أول الأمر ، أو ينقده ويشعر بسخط داخلى إن كان بعيدا عن هذا المستوى .

وإذا كانت هذه العاطفة معدومة ، أو كانت ضعيفة ، يفقد الإنسان أهم ركن تستند إليه الأخلاق ، ويسير فى الحياة متخبطا وراء دوافعه الطبيعية المختلفة أنى وجهته ، وكأن ليس له من إرادة [١] .

ونتبين من هذه العجالة البسيطة ، التى أتينا بها لكى نعطى فكرة مختصرة بسيطة عن رأى زعيم من زعماء علماء النفس ، طالما وقف معارضا ، بل ومنتقداً قاسيا لكثير من آراء ونظريات التحليل النفسى [٢] — نتبين منها أموراً على جانب كبير من الأهمية ؛ فهو يوافق التحليل النفسى على تكوين الذات . وعلى تأثر هذه الذات بالمسيطرين المتنفذين فى الطفل ، وعلى تشرب الطفل مُثل هؤلاء ، وتكوّن قوة خاصة فيه هى عاطفة اعتبار الذات ، تعين سلوكه ، وتشعره بالرضا إن سلك سلوكا يساير المثل المتضمنة فيها ، وتشعره بالتأنيب والوخز والذنب والضيق ، إن تعارض سلوكه معها .

وكذلك لو أخذنا آدلر ، منشىء مدرسة علم النفس الفردى [٣] ، تلك المدرسة التى جعلت الذات نواة بحوثها ، نجده قد سبق مدرسة التحليل النفسى فى دراسة تطور المثل ، وفى كيف يثير فينامس احترام الذات وتجريحها بأى شكل من الأشكال ، شعوراً بالسخط والغضب .

---

(١) أنظر الباب السابع « نمو الشعور بالذات وعاطفة اعتبار الذات » من كتاب Social Psychology, by W. Mc. Dougall

(٢) أنظر كتاب Psycho-Analysis & Social Psychology by. W. Mc' Dougall فهو ملىء بانتقادات للتحليل النفسى .

(٣) Individual Psychology

إن أهم دافع فى حياة الإنسان عند آدلر ، هو شىء أقرب إلى إرادة القوة عند الفيلسوف الألمانى نيتشه Nietzshe . وهو دافع يستحث المرء لأن يعلو ويتغلب ويتحكم ، ويؤكد سلطانه وعظمته . ولكن سرعان ما يشعر الإنسان بالألم ، خصوصاً فى عهد طفولته العاجز ، عند ما يدرك أنه قليل الشأن ، ضعيف الحيلة بالنسبة لغيره . ولذلك يشيد لنفسه صورة موجهة أو هدفا لحياته[1] ، أو مثلا أعلى يتمنى لو يكونه . وهذة الصورة الموجهة ، أو هدف الحياة يحدد سلوكه ، ويعين تصرفاته ، ويرسم نمط حياته أو أسلوب الحياة [2] الذى يسير عليه . . وهو يشبه إلى حد كبير ما سماه التحليل النفسى بالذات المثلى . ولكن هناك شيئاً من الاختلاف الأساسى بين فكرة مدرسة التحليل النفسى ، ومدرسة علم النفس الفردى عن الذات المثلى للأولى ، والصورة الموجهة للثانية .

فالذات المثلى عامل خلقى أساسى يتبنى بها المرء المثل الخلقية فى محيطه . بينما أن الصورة الموجهة هى نتاج الأنانية الأولية الأصلية للمرء ، نتاج حاجته الفردية لأن يتحكم ويتفوق .

وعلاوة على ذلك فالصورة الموجهة إنما تتكون فى الفرد وتتحدد لدرجة كبيرة ، نتيجة محاولاته أن يعوض عن نقصه وقصوره . إن التأكيد على التعويض ، هو لدى آدلر ركن هام من الأركان الأساسية فى مذهبه .

فنى بعض الحالات ، تكون هذه الصورة الموجهة أو هدف الحياة حقيقيا واقعيا ، يثير باستمرار دافع النجاح ، إما بأن يتغلب الإنسان على مواضع

---

(١) الصورة الموجهة Guiding Fiction ، وهدف الحياة Goal of Life

(٢) نمط الحياة أو أسلوب الحياة Pattern of Life or Style of Life

ضعفه ، ويقوى مراكز نقصه ، كأن يمرن الشخص الضعيف البنية عضلات جسمه ، أو يكثر الطالب المتأخر من ساعات دراساته ؛ وإما أن يقوم المرء بالتعويض عن قصوره فى نواح أخرى ، كأن يعوض التلميذ عن ضعفه الجسمى بتفوقه فى دروسه وأعماله .

وفى بعض الحالات ، قد تكون الصورة الموجهه أو هدف الحياة ، بعيداً عن الواقع بعداً شاسعا ، فلا يكون بذلك حافزاً لمحاولات جدية يقوم المرء بها لتقوية مواطن ضعفه ، أو التعويض عنها بالبروز والظهور فى نواح أخرى غيرها . فيلجأ المرء إلى الخيالات والأوهام ، يحقق فيها ما يشاء ، ويحاول عن طريقها أن يكوّن لنفسه قدراً ، ويجعل لذاته قيمة ، بعد أن سدت حياة الواقع الطرق أمامه . والمثل فى ذلك مثل ذلك الطفل الفقير الذى تكوّن هدف حياته على صورة الاستمتاع بما يستمتع به الأطفال الأغنياء من الحوز على ملابس أنيقة ، ونقود كثيرة ، ولعب متعددة ، وقصر باذخ ، وغير ذلك . فهو يلجأ إلى خياله يبنى فيه ما يشاء ، ويستمد منه كل ما تصبو نفسه إليه ، ويحقق فيه كل ما تصبو ذاته إليه من رغبات .

والتحليل النفسى لايهتم اهتمام المدرسة الفردية بالتعويض عن النقص فى دراسته للذات المثلى . حقا ، إن مدرسة التحليل تعترف بوجود هذا الشعور بالنقص ، ولكنها تعتقد أنه يلعب دوراً ثانويا فى تعيين الأهداف الخلقية ، وتحديد سلوك المرء واتجاهاته فى الحياة . بل إن هذه المدرسة ، ترى أن الشعور بالنقص إنما هو نتاج المثل الخلقية ، وليس سببا لوجودها وتكوينها . وذلك لأن الفشل فى الوصول إلى تحقيق هذه المثل ، يأتى معه بالشعور بالنقص والذنب ، وضآلة قيمة المرء ، اللهم إلا إذا عُلل الفشل تعليلا معقولا ، أو بُرر بشكل من الأشكال .

وعلى كل حال ، فإنه يتراءى لنا أن مدرسة التحليل النفسى أعمق فى دراساتها وبحوثها ، وأكثر ثروة فى آرائها ، من مدرسة علم النفس الفردى .

ويعلق جماعة التحليل النفسى أهميـة كبرى على نوع الذات المثلى التى تتكون فى المرء بالنسبة لذاته . فإذا كان الفرق بينهما شاسعا ، أثار الشعور بالنقص والذنب والسخط ؛ إذ ترى الذات أنها أعجز من أن تصل للذات المثلى ، وأضعف من أن تقطع المسافة التى تفصل بينهما . ويفسر لنا هذا ، كيف أن عدداً غير قليل من النـاس يلومون أنفسهم دائما ، حتى ولو أحرزوا شيئا من النجاح فى حياتهم ، بينما لا يلومون غيرهم ، إذا ما أحرزوا النجاح نفسه ؛ وذلك لأنهم ينتظرون من أنفسهم أكثر بكثير مما ينتظرون من غيرهم ؛ ولأنهم ينظرون للغير كما لو كانوا من معدن غير معدنهم ، فلا يرجى منهم أن يترقوا فى سلم الحياة درجات بقـــدر الدرجات التى يجب عليهم هم أن يصعدوها .

إن كثيراً من الشقاء الذى ينهش فى نفوس بعض الأفراد ، ينشأ من أنهم رسموا لأنفسهم مستوى شاهقاً رفيعاً . وربما كان هذا امتداداً لنوع المعاملة التى عاملهم بها والدوهم عند ما كانوا أطفالا صغاراً . فبعض الوالدين يتطلبان من الطفل الصغير الكمال فى كل شىء ، فى أعماله وسلوكه وكلامه ، ويحاسبانه على كل هفوة تصدر عنه حساباً عسيراً . وينظران إليه كما لو كان راشداً متفهماً مكتمل العقل ناضج القوى ؛ فينشأ مثل هذا الطفل ساخطاً متبرما لا يقنع بأى شىء ، مغموراً دائما بشعور من الخزى والخجل والسخط ؛ اذا ارتقى إلى منصب فلا يزال يرى أنه فى مركز أقل بكثير مما هو جدير به ؛ وكلما غمرته نعمة ، شعر بأنه أحق بما يفوقها درجات . إنه لا يستطيع أن يتذوق طعم السعادة

والرضا ، بل أنه ليشع الشقاء على غيره ، وينشر البؤس والتعاسة بينهم ، بانتقاده المستمر لسلوكهم وتصرفاتهم مهما كانوا على خلق كريم . وقد يصبح هذا الشخص عصابياً Neurotic ، دائم السخط على المجتمع ، إذ لا يجد فيه الفضيلة التي يهواها ويتعشقها ويعبدها ، دون أن يمارسها في الغالب ، نافراً من الناس ، لأنه يشعر بأنهم أقل منه شأناً بكثير ، وأحط من أن يمتزج بهم ، أنانيا يعمل على أن يحقق رغباته الخاصة ، إذ يراها أرفع الرغبات وأسماها ، وأجدرها بالتحقيق دون سواها . ويرى نفسه في ذاته المثلى أعلم وأفضل وأرقى من في الوجود ، بينما قد يكون في ذاته الواقعية أجهل وأرذل وأحط من في الوجود .

ليست الحياة العامة بالمكان الذي يصلح لمثل هذا الشخص ، ولكنه بحاجة إلى إصلاحية يعالج فيها من مرضه النفسي ، أو إلى دير يناجي فيه السماء ، ويتغزل في المثل الرفيعة التي أبدعها وأودعها فيها ، بينما يزحف على الأرض بذات واقعية حقيرة سخيفة .

إن العلاج الناجع للحالات العصابية ، لا ينحصر فقط في أن تضحي الذات السفلى بكثير من مطالبها التي لا يمكن أن تتصل بحياة الواقع ، بل يتضمن أيضا تقليلا من المطامح والمطاليب البعيدة بعداً شاسعا عن الواقع ، للذات العليا أو الضمير .

وقد يقال خطأ إن في الاجراء الأخير أثراً غير خلقي للتحليل النفسي . ولكن يجب أن أكرر هنا ، إن وضع هدف عال جدا للتحصيل الشخصي أو النقاء الخلقي ، لا يتناسب مع كفاية الإنسان الحقيقية وإمكانياته ، لا ينجم عنه قيمة ذاتية كبيرة للإنسان ، وإنما يتمخض عن تبرم وسخط وبؤس له ، وحقد دفين شديد على الغير مهما كانوا ، وتعاسة لمن يلوذون به من أولاد يربيهم ،

أو تلاميذ ينشئهم ، أو مرؤوسين يسيطر عليهم ؛ بل إنه قد يجعل هؤلاء جميعا يبغضونه ويثورون ضد مثله العليا ، فيزداد شقاؤه شقاءاً .

وكما أن المثل أو الذات المثلى تكون رفيعة ، فإنها تكون أيضا وضيعة . والمثل فى ذلك ، الذات المثلى التى يتمثلها المرء من بيئة فاسدة أو مجرمة ؛ من أبوين منحطين فى أخلاقهما ، وضيعين فى صفاتهما وسلوكهما .

وحتى لو كانت الذات المثلى التى تقمصها الإنسان من بيئته الأولى طيبة صالحة ، فإن اختلاطه مع قرناء سوء ، أو اتصاله بأوساط فاسدة ، قد تشربه مثلا تناهض مثله الأولى ، فيحدث بينهما صراع داخلى ، ربما ينتهى لعدة أسباب ، ليس فقط بتغلب المثل الجديدة ، وظهور الذات المثلى الأخيرة ، بل بإضعاف الضمير قوة متحكمة فى سلوك الإنسان ، وإعطاء الفرصة للذات السفلى أن تمسك زمامه ، وتقوده إلى الحضيض . وسأرجع إلى هذا بالتفصيل فى الباب الأخير . ولكنى أود أن أؤكد من الآن على هذه النقطة للمسئولين عن تربية الناشئة خصوصا فى دور البلوغ والشباب .

بل أود أيضا أن أؤكد عليها للشباب العاقل الذى نشأ نشأة طيبة ، فأنصحه بأن يبتعد عن كل العوامل والحوافز التى تنخر فى تلك النشأة ، وفى الذات المثلى الطيبة التى تمثلها فى بيئته ، والتى من شأنها أن تهدد أمنه النفسى ، وتزعزع تكوينه الخلقى ، وإذا به ينزلق إلى الهاوية دون أن يشعر ، فيجلب بذلك على نفسه شقاءاً ما دونه من شقاء .

ونجد بين الناس من تعوزهم الرغبة فى الظهور بين إخوانهم ، والارتقاء بأنفسهم ، خصوصا إذا لم يكن هناك حافز خارجى لذلك ، مثل الحاجة لإرضاء أب طموح أو أم طموحة ، أو كسب عيش ، أو إرضاء حبيب ،

أو تكفل أولاد . إن هؤلاء يقنعون بأى قسط من النجاح يحرزونه مهما كان ضئيلا غير متناسب مع قواهم واستعداداتهم . وقد نجد بعض الأفراد يخشون متاعب الحياة ، ويتهربون من مسئولياتها ، ويعيشون أطفالا صغاراً مهما امتد العمر بهم . وقد يكون المسئول عن ذلك أبا أو أما لا تريد أن تفطم ابنها فطاما نفسيا ، بل تريده أن يكون دائما طفلا صغيراً ، معتمداً عليها ، يجلس فى حجرها ، ويمسك بذيل ردائها .

وقد يبرر البعض فتور محاولاتهم لتحقيق مثلهم والسير بالتدريج نحو ذواتهم المثلى ، بالمبالغة فى تصوير العقبات التى تقف فى طريقهم ، أو المبالغة فى بعض مايقاسون من نواحى ضعف لاسبيل لهم للتغلب عليها ، مثل ضعف البنية ، أو الفقر المدقع ، أو فساد الأحوال الاجتماعية ، أو عدم وجود وساطات إلى غير ذلك .

وقد يكون البعض على درجة من الكسل أو القناعة بحيث لايستطيعون أن يرسموا لأنفسهم ذواتا مثلى .

ويمكن أن نقول فى هذا الصدد إن هناك طريقتين للتقليل من الشقاء الناجم عن عدم تحقيق الفرد لرغباته : أولاهما بزيادة المجهود الذى يقوم به ، حتى يستطيع أن يحقق أكثر ما يمكن . وثانيتهما : بأن يقلل من المغالاة فى رغباته ، بحيث يقنع بالوصول إلى أقل مما تزخر به نفسه منها .

وقد يكون الأفضل للفرد أن يرسم ذواتا مثلى . ترتقى الواحدة منها على الأخرى ، وتؤدى كل منها إلى ما تليها . أما رسم ذات مثلى عالية جداً ، أو منحطة جداً بالنسبة لقدرات الشخص ، فإن ذلك مدعاة للكسل ، ومثار لفتور الهمم والتحصيل ، علاوة على ما يسببه من متاعب نفسية كثيرة للإنسان ، أهمها القلق النفسى المريع الذى تنجم عنه أمراض خطيرة .

الصلة بين الذات المثلى والمجتمع :

إن الذات المثلى شىء غير واقعى ، ولكنها تكون فى الغالب على شاكلة الذات . وتتفاعل الذاتان طول حياة الإنسان . وينعكس هذا التفاعل بينهما على صلات الإنسان بالمجتمع ، التى تشبه الى حد كبير ، صلات الطفل بوالديه . ففى أثناء الطفولة يستمتع المرء حب والديه ورضاهما إذا أطاعهما ، وسار تبعاً لما يرغبان ، ويقاسى عقابهما وسخطهما اذا ما خالفهما فيما يرغبان . ومعنى ذلك أنه يستمتع الحب والرضا اذا كان صالحا طيبا ، ويخشى الغضب والعقوبة إن كان عرما عاصيا . ونجد مثل هـذه الصلة بين الذات والذات المثلى التى تمثل الوالدين واتجاهاتهما السلوكية والخلقية . ونستبين هـذا فى سلوك الطفل الصغير عنـد ما يبدى رضاه عن نفسه ، إذا سلك السلوك الذى يرضى ذاته المثلى (الممثلة للوالدين) فربت نفسه ، ويبتسم لنفسه كما يفعل والداه معه ، وعندما يعاقب نفسه كما يعاقبه والداه ، فيشتم نفسه ، أو يصفع يده ، أو ينزوى فى ركن من الغرفة ، إذا فعل فعلة تثير سخط ذاته المثلى ، وكأن شعوراً يمتلكه فى هذه الحالة بأنه ضعيف حقير القيمة ، وكأنه يعانى صراعاً داخلياً ، بينما يشعر فى الحالة الأولى ، أنه قوى مستقيم ، أهل للتقدير والحب ، وأن هناك توافقا داخليا فى نفسه بين ذاته وذاته المثلى . ويشبه هـذا التوافق بين الذات المثلى والذات ، حالة الأب الفخور بابنـــه ، الذى يفعل كما يشاء الأب فى رغبة وطاعة وثقة .

إن الصلة بين الذات والذات المثلى وانعكاسها على المجتمع ، تظهر فى حالتين متطرفتين : حالة الملانـكوليا (Melancholia) أو ماتسمى بالماليخوليا ، أو داء السوداء ، أو الاكتئاب ، أو الجنون الصامت ؛ وحالة المـانيا Mania أو جنون العظمة .

ففى الحالة الأولى نجد أن الفرق بين ذات الشخص وذاته المثلى كبير جداً . ولذلك فإن المريض بهذا النوع من الاضطراب العقلى لا يكون فريسة فقط للهم والاكتئاب الشديد ، ولكنه غالبا ما يتهم نفسه بجرائم وذنوب كثيرة ، لا يمكن أن تغتفر . بل إنه كثيراً ما يسمع صوت ضميره ، على شكل هذر من تأنيب وتقريع وسباب .

وقد نجد شيئا قريبا من هذا الهذر على شكل آخر ، فى بعض الذين يقاسون حالات نفسية مرضية أخف وطأة من الماليخوليا : مثل ذلك المريض الذى يهم بارتكاب جريمة ، فإذا به يرى كأن أباه أو أمه واقفة أمامه ، ترنو إليه بعين ملؤها الحزن والكمد . وفى بعض الحالات الأخرى الأخف درجة من هذه ، قد يملأ الشخص عند ما يهم بارتكاب جريمته ، خوف من الله الذى يرى كل شىء ، فيتخيل أية ظاهرة من الظواهر مثل الرعد أو الشعور بألم فى جسمه ، كأنه إنذار من قبل الله ، ونوع من التحذير والردع . بل قد يتابع الضمير الشخص ويلاحقه فى أحلامه ، إذ يظهر له على شكل ضوء مخيف يتبعه ، أو عيون كثيرة تحيط به ، وتصوب عليه ، وتقتفى أثره .

أما فى الحالة الثانية : حالة المانيا Mania ، فإن المريض يشعر بأنه قوى عظيم فى قوته ، صالح كامل فى صلاحه ، وكأن ليس فى الحياة من أمر يصعب عليه أن يقوم به وينفذه . وهنا تتحد الذات بالذات العليا أو المثلى ، على عكس ما يحدث من الانفصال الواضح بينهما فى الماليخوليا . وإذن يمكننا أن نعد أولئك الذين شطحوا من أهل الصوفية ، فشعروا بأنهم الخالق أشخاصاً مرضت عقولهم ، واعتلت نفوسهم ، وأصيبوا بجنون العظمة ، عندما اتحدت ذات الواحد منهم بذاته المثلى التى ربما كان الخالق نواتها ، تماما كما نعد الشخص الذى يشعر بأنه نابليون أو هتلر أو النبى المنتظر مصابا بهذا المرض العقلى .

وقد يحدث أن يتناوب الاتحاد والانفصال بين الذات والذات العليا فى ذلك النوع من الاضطراب العقلى المسمى manic depression أو اكتئاب العظمة ، أو سيكلوثيميا Cyclothemia ، حيث تنتاب المريض مشاعر فظيعة من الحقارة والضعف ، ومشاعر هائلة من القوة والعظمة والصلاح . ويحدث هذا إلى حدما فى كل فرد تقريبا .

وبالرغم من أن الذات العليا تحل محل الوالدين أو ذوى النفوذ ، وتقوم بوظائفهم من الأمر والنهى ، والرضا والسخط ، فإن الإنسان ، إذا كان سويا ، لا يستطيع أن يحيا مستقلا عن حكم المجتمع الذى يحتك باستمرار به ، متجاهلا رضاه عنه ، أو سخطه عليه . إذ ليس أقسى على الإنسان من أن يجد نفسه منبوذا من المجتمع . وحيداً فى عالم خاص به من آراء ومعتقدات .

وتتصل حاجة المرء هذه إلى رضاء المجتمع والناس الذين يعيش معهم ، بحاجته فى عهد طفولته إلى رضاء والديه . كما يتصل أيضاً همه وقلقه وهلعه ، عندما يجد نفسه منبوذا من المجتمع بهمه وقلقه وهلعه ، عند فقدان حب والديه له ، وحدبهما عليه ، ورضاهما عنه ، فى السنوات الأولى من حياته .

وليس من السهل فى أثناء حياة الإنسان . فى طفولته . ورشده . أن نميز فيها بين العناصر الخلقية الاجتماعية ، والعناصر الأنانية المتصلة ببقائه والمحافظة على حياته . فانفصال الطفل عن والديه ، ربما يثير فيه قلقلة شعوره بالأمن والطمأنينة ، وبذلك يغمره قلق من النوع البيولوجى أو الواقعى . ولكن ، زيادة على ذلك ، يوجد قلق من نوع آخر يتسبب عن سخط الوالدين ، وفتور حبهما له ، وعدم إظهارهما علائم الرضا عنه . فإذا حدث ما يثير هذين النوعين من القلق ، كانت حياه الطفل تعسة بائسة شقية . والمثل فى ذلك انفصال الوالدين أو أحدهما ، عن الطفل بالطلاق مثلا ، وعدم اهتمام الوالد المعاشر

للطفل به ، نتيجة انشغاله بزوج جديد ، لا يشعر الطفل بحنان ، أو عطف ؛ بل ويعمل على أن يسحب حنان أبيه أو أمه منه . وثمة مثـــل آخر : مثل الوالدين الأنانيين أو اللذين ترغمهما الحياة — دون أن يستطيعا مقاومتها — على ألا يكترثا بطفلهما الاكتراث اللازم ، ويمداه بالرعاية والعناية الواجبة بل يتركانه فى أيدى مربيات جاهلات قليلات الحنان والعطف ، أو موزعات لحنانهن وعطفهن على عدد كبير من الأطفال يحتضنّهم (كما هو الحال فى دور الحضانة)[1]، بحيث لا يصيب الواحد منهم سوى قسط صغير ، لا يكفى لأن يشعره باطمئنان أو أمن ، بل قد يشعره بشىء غير قليل من القلق والجزع وربمـا الهلع . وأمثال الآباء والأمهات الأنانيين ، أولئك الذين يتلهون عن الطفل بالاستمتاع بحياتهم ، بين خروج وزيارات متكررة للأصدقاء ، وارتياد للملاهى ودور التسليـــة ، والانغماس فى الحفلات العامة والخاصة . ومثل الآخرين أولئك الذين يجذبهم كسب العيش إلى خارج منازلهم ، بحيث لا يرون أطفالهم إلا لماما .

ونجد هذين النوعين من القلق فى حياة بعض الناس ، بعد أن يكبروا وينضجوا ، مثل الموظف الذى يفصل من وظيفته ، أو المجرم الهارب من العدالة ، أو الذى قاسى العقوبة التى وقعها عليه القضاء بحق ، ثم خرج إلى الحياة ، ليجد الناس يبتعدون عنه . وينفرون منه ، ولا يقبلونه صاحبا ، أو عاملا ، وكأنهم قد وصموه إلى الأبد بوصمة العار ، وحكموا عليه بأن يعيش بقية حياته بعيداً عن حظيرتهم ؛ ومثل الحبيب الموله المهجور ، والمرأة المطلقة ، والعاطل الذى لا يجد عملا .

---

(١) أقصد دور الحضانة التى تضم الطفل فى سن مبكرة جدا مثل سنة أو سنتين والتى يبقى الطفل فيها نهاراً وليلا .

إن كل فرد منا لديه « حاجة لأن يحتاج اليه » . وهى امتداد لحاجة الطفل الصغير إلى الأمن والطمأنينة باستشعاره عطف والديه عليه ، وإحساسه بأنهما بحاجة اليه ؛ أو بلسان علماء النفس الأرثوذكس ، إنها أثر لدافع عاطفة اعتبار الذات التى تعمل على أن يَشعر الإنسان بأن له قيمة واعتباراً فى الحياة .

فالعاطل الذى لا يجد عملا لمدة طويلة ، قد ينمو فيه شعور بحقارة نفسه، وضآلة قيمته ، وعجزه عن أن يندمج فى المجتمع ، أو أن يجذب المجتمع إليه . وقد يؤدى هذا الشعور إلى أن ينظر للمجتمع نظرة عداء ، فيهاجمه ، ويكسر نظمه، ويرغمه على أن يهتم به ، بجموحه وإجرامه ؛ أو قد يتضخم فى نفسه الشعور بالحقارة والعجز حتى يفنى ، أو يفنى نفسه بنفسه .

وقد يكون من أهم العوامل التى تساعد على علاج الحدث الجامح ، بل فى بعض الأحيان ، قد تكون الطريقة الوحيدة للعلاج ، أن ندمجه فى مجموعة من الناشئين القريبين من عمره . وأن نثير اهتمامه وحماسته إلى عمل مشترك يقومون به ، ويضطلع هو بنصيب فيه .

وقد تصلح الطريقة نفسها مع المجرم الراشد ، بل ومع عصابة من مجرمين.

ومن هنا نستطيع أن نلمس أحد الأسباب النفسية ، التى من أجلها تندلع الثورات فى الشعب ، وتنشب الحروب بين الشعوب المختلفة ؛ فترفُّع الحكام على الشعب ، وإهمالهم لشئونه ، وضغطهم لحريته التى كفلها له القانون والتشريع السائد . ونظرتهم له كأنه عبد مستعبد ، وغير ذلك مما يشعر الشعب بضآلة شأنه ، واضمحلال قيمته ، كل أولئك يدفع الشعب لأن يجمح ويكسر النظم الاجتماعية ، ويحطم القوانين ، فينتشر بذلك الفساد ، وتعم الفوضى ، حتى يسترد الشعب اعتباره ، أو يشعر بأن له قيمة وشأناً .

ومن هنا نستطيع أيضا أن نتبين الأثر الفظيع فى الأمن الدولى لاستعمار

الشعوب بعضها بعضاً . فالاستعمار بصوره المختلفة من احتلال أو وصاية أو حماية أو انتداب ، معناه إشعار الشعب المستعمر بضعفه وتفاهة قيمته بالنسبة للشعوب الحرة . وهنا أيضاً يجمح الشعب المستعمر ، طال أمد الاستعمار أو قصر ، وتشتعل فيه الثورات جهراً ، أو سراً ثم جهراً ، حتى يرجع إليه الشعور بأنه شعب ذو قيمة ، وأنه كفيل بأن يستمتع بحياة الحرية ، ويعيش فى كرامة وأمن وطمأنينة .

وقد دلت البحوث التى أجريت فى الانتحار على أن شعور المرء بأنه محتاج إليه ، وذلك بقيامه بمسئوليات ذات بال فى الحياة ، يجعله فى مأمن من أن ينتحر ، إذا ماادلهمت عليه بعض المصائب ، مثل فقدان عزيز ، أوابتلائه فى مركزه أو ثروته ، أوغير ذلك ؛ بينما أن مجرد شعوره بأن عمله ، أو وجوده فى الحياة ، ذو قدر ضئيل ، وأهمية قليلة ، يكفى لأن يخل توازنه ، إذا ما أحاطت به ظروف كئيبة ، أو دهمته ملمة أو مصيبة ، فيقضى على نفسه بنفسه .

ومن هنا أيضاً نلمس جانباً من جوانب أهمية الروابط العاطفية أو قل الروحية ، بين الإنسان وغيره ، تلك الروابط الدائمة التى تضع على عاتقه بعض المسئوليات ، وتشعره بأنه محتاج إليه ، مثل الصلة بينه وبين والديه ، أو إخوة له ؛ ومثل الصلة بينه وبين زوجه ، أو أولاده ؛ أو بينه وبين علم أو مبدأ يعتنقه ، ويكرس أكثر جهوده له . إذ أن هذه الروابط تثير فيه الشعور بأنه محتاج إليه ، وبأنه من أجل ذلك ذو شأن وقيمة . بينما أن انعدامها أو ضعفها يجعل موقفه من الناحية النفسية ، موقف العاطل الذى أشرنا إليه من قبل ، وتتراءى له حياته تافهة رجراجة غير متركزة على أساس متين ... وإن هى تركزت على أساس مادى ، مثل زواج من أجل المادة فقط ، أو جمع ثروة ، أو الارتقاء فى مناصب مادية ، فسرعان ما يتآكل هذا الأساس بمضى الزمن ، أو يرتج ويترنح ، لأن

المادة سريعة التبدل والتغير ، وكذلك تكون روابط الإنسان بها . . وإذا به يشعر بفراغ فظيع رهيب ، يجعل فؤاده خائراً ، وعقله حائراً ، ونفسه قلقة مضطربة . وإذا بالذات العليـا تتفكك قواها ، وينفرط عقدها . . . وإذا بالذات السفلى ، تجد الفرصة سانحة ، لأن تمسك بزمام الإنسان ، وتوجه سلوكه . وبذلك يقع فريسة لانحلال نفسى وجسمى معا .

ويجب أن أذكر هنا أن أهم هـذه الروابط هى الروابط الزوجية ، إذا كان الزواج قائما على أساس من تفاهم وتعاون فى تحمل مسئوليات الحياة ، وجعلها أسعد مايمكن . وذلك لأن الروابط الزوجية أكثر الروابط دواما ، لاستنادها إلى أسس قوية من عواطف وغرائز رئيسة ، ولأنه يثمر نسلا يزيد من شعور كل من الزوجين بقيمته وأهميته ، عند ما يرى النسل ينمو ويشتد ، فينمو تبعا لذلك شـــعور الزوج بأهمية حياته ، وقيمة وجوده ، وخطورة رسالته .

بل إننا لنلمس فى بعض الحيوانات التى تستطيع أن تستشعر عاطفة بدائية من الحب ، ويكوّن الفرد منها روابط مع غيره من نوعه من الجنس الآخر ، نلمس أن حياة كل منها تصبح ذات قيمة خاصة لوجود تلك الروابط . وكأنه قد ازداد نشاطا وحيوية وحبا فى الحياة . والمثل فى ذلك الحمام واليمام والكلاب . بل نجد أن فقدان هذه الروابط لسبب من الأسباب ، يجعل حياة الفرد منها كئيبة ضحلة ، وكأنها خلت من كل معنى وقيمة ، حتى إنه ليعاف الطعام ، ويعانى الضعف والقعود والفتور إلى أن يهلك ، وكأنه أراد فعلا أن يهلك ويتخلص من الحياة .

يجب أن أؤكد للشباب وأهلهم ، خصوصا فى هذا العهد الدقيق الذى

يمر به الشرق اليوم ، والذى تتزعزع فيه بعض المثل التى أشربها الناس وتمثلوها من قديم ، أن الزواج أكبر مأمن للإنسان من أن يحيا حياة باردة فاترة ، ومن أن يتضاءل اعتباره لذاته ، كائنا له قيمته وشأنه ، وله رسالة سامية حملته الطبيعة إياها منذ بدء الخليقة ، وأودعت دافعها فى تركيبه العقلى ، وشحنته بأعظم قوة وأكبر طاقة ؛ ومن أن يدب فى فيافى الحياة ، دبيب الضال الغارق فى لجج لا يتبين من صخبها شاطئا يرسو عليه ، ولا يرى خلالها نوراً يهتدى به إليه . . . ولذلك كان الزواج نظاما اجتماعيا منذ فجر التاريخ الإنسانى . . ولذلك أيضا باركته الأديان السماوية ، وقدسته المذاهب البشرية . ولكن أصبح المأمن ويالأسف مثاراً للخوف ، وأضحى الملجأ عرضة للعصف . . وليس هذا إلا مظهراً للخوف الداخلى والعصف النفسى اللاشعورى . إنه عَـرَض للصراع العقلى الذى تزخر به نفوس بعض الشباب فى دور التطور الذى يمر به الشرق الآن ، أو ما يمكن أن نسميه بدور الانتقال من حياة الدكتاتورية الذكرية ، التى يبدو الرجل فيها كل شىء ، والمرأة لا شىء أو بعض الشىء ؛ التى فيها الرجل هو السيد الحاكم ، والمرأة مسودة محكومة — إلى حياة جديدة تلمع فيها مبادىء فريدة ، تقوم على أساس ديموقراطى من تعاون الرجل والمرأة معا فى الحياة ، تعاوناً روحياً واجتماعياً ، وربما مادياً أيضاً .

فالرجل ، ولما يتمثل تماما ، المبادىء الحديثة تمثلا راسخا بحيث تصبح جزءا ثابتا فى تركيبه النفسى ، يطغى على ما تمثله من قبل فى ضميره من التقاليد القديمة ، يخشى أن تزيحه المرأة عن العرش الذى استوى عليه قرونا عديدة ، وأجيالا مديدة . وتخشى المرأة ، وهى تتمثل هذه المبادىء أسرع من الرجل ، لأنها تنطوى على إعلاء شأنها ورفع قيمتها ، أن يعاشرها الرجل على هدى التقاليد القديمة ، فيكون آمراً ناهياً ، يريدها على أن تفنى شخصيتها فى شخصيته ،

وعلى أن تجعل كرامتها شيئا ثانويا بالنسبة لكرامته .

ويحدث هذا الصراع أكثر ما يحدث ، ويعانيه أشد من يعانيه ، المثقفون من الجنسين ، لأن الثقافة تشرب الذات العليا بمثل جديدة ، قد تتعارض مع ما تمثلته من قبل ، وأشربت به من الوالدين وتقاليد الأسرة وتقاليد المجتمع السائدة . وبسبب هذا نجد التهيب من الزواج والتخوف منه بين الشباب المثقف أكثر من وجوده بين غيرهم .

وهذا الصراع الداخلى الذى يحدث فى الذات العليا بين ما تمثلته من تقاليد قديمة ، وما تتمثلة من مبادىء حديثة ، هو السبب الحقيقى الخفى لتهيب الزواج ، والتردد إزاءه ، أو الإحجام عنه . أما ما يبديه الشاب من أسباب لذلك ، كالعجز المادى ، أو ترفع الفتاة المثقفة عن القيام بمسئوليات الحياة الزوجية ؛ وما تبديه الفتاة من رغبتها فى أن تجنى ثمار ثقافتها بالنزول إلى ميدان الحياة ، وعجزها عن أن تقوم بمسئوليات الزواج ، مع مسئوليات الحياة العملية خارج المنزل ، أو من أن الزواج يربطها إلى البيت الضيق المحدود ، فتصدأ مواهبها ، وتضيق مآربها . . . ليس كل ذلك إلا تبريراً للصراع الداخلى الذى تجيش به نفس كل منهما . . . والذى كثيراً ما يدفعه أو يدفعها إلى حياة زوجية بائسة لا انسجام فيها ولا اتفاق .

ولست مزمعا أن أتكلم هنا عن سيكولوچية الزواج ، ولكن أود فقط أن أقول إنه من الخير للفتاة أو الفتى أن يواجه ذلك الصراع الداخلى عندما يفكر فى الزواج ، ويعمل على التوفيق بين قطبيه ، ويختار شريكة حياته فى ضوء هذا التوفيق . كما أنه من الخير أيضاً له أن يساعده أهله على اختيار زوجته اختياراً يجعل حياته وحياتها سعيدة ، غير متحيزين فى ذلك لرغباتهم

الشخصية أو تقاليدهم الخاصة ، ففتاتهم ليس صورة مطابقة لهم ، وزمانه وعصره لايماثلان زمانهم وعصرهم . فمثلا خير للفتى المتمسك بالتقاليد القديمة أن يتزوج فتاة لا تجد غضاضة فى أن تعيش معه فى ظل هذه التقاليد . . وخير للثائر على هذه التقاليد أن يبحث عن فتاة ثائرة عليها ، وهكذا .

عدم تكامل الذات المثلى :

يتبين لنا مما سبق أن ذكرناه فى مثال الزواج وأهميته فى حياة الإنسان ، أن الذات المثلى ، أو المثل التى تتكون منها ، قد تتعارض وتتصارع . إذ رأينا أن التقاليد التى يمتصها المرء من أهله ، فتصبح بذلك مثلا تدخل فى تكوين ذاته العليا أو ضميره ، ويسير على هداها دون أن يشعر ، قد تتعارض مع مثل أخرى ربما تنشأ عن مبادىء جديدة تسود فى محيطه ، وقد يتمثلها الإنسان أيضا .

ويتضح من هذا أن الذات المثلى ، التى هى أهم عامل فى تكوين الضمير ، بل هى نواته التى يشربها الإنسان عن المتنفذين فيه ، وخصوصا والديه فى أول الأمر ، ليست تركيباً منسجماً ، وقوة موحدة ، توجه الإنسان فى الحياة وجهة واحدة . . . وذلك لأن وجهات ذوى النفوذ والسلطان على الفرد ، من والدين ومربين ومعلمين وغيرهم ، قد تختلف ، بل وقد تتعارض وتتضارب ، وبذلك لا يحدث تكامل فى مثل الإنسان أو فى ذاته المثلى .

ولقد درس علماء النفس ، الاختلافات بين الوالدين فى توجيههما للطفل وأثرها فى تكوين ذاته العليا ، ومن ثم فى سلوكه فى الحياة ، وفى أخلاقه بل وفى صحته النفسية . فقد يكون الأب صارما مع الطفل بينما تكون الأم لينة متساهلة . وبذلك يمتص الطفل منهما مثلين أو اتجاهين خلقيين ، يسير بمقتضاهما فى حياته ، فيكون صارما فى بعض الأحيان ، ولينا متساهلا أحيانا

أخرى . والحياة مليئة بهذا الصنف من الناس . نجد الشخص منهم صارما بل قاسيا مع أولاده ومرؤوسيه مثلا ، بينما يكون لينا متساهلا ، بل وضعيفاً الضعف كله مع زوجه أو رئيس له .

ونجد مثل هـذا الشخص متبدّل الآراء ، متقلب الأحكام فى كثير من أمور الحياة وقضاياها . فهو يعضد رأيا ، أو يصدر حكما على أمر ، وإذا به بعد ذلك يفنده أو ينقضه . ذلك لأن ذاته المثلى ، أو ذاته العليا تتـكون من قوى ليست متماسكة ولا متساندة ، بل متعارضة متضاربة .

وسبب آخر لعدم تكامل الذات المثلى أو الذات العليا فى الإنسان ، هو اتجاه الوالدين ، وخصوصا الأم فى أول الأمر ، نحو الطفل . فهى مصدر حبه ، ومنبع رعايته وحمايته . ثم إنها فى الوقت نفسه، مناعة له ، تقف فى سبيل تحقيق الـكثير من رغباته ، وتثير فيه بسبب ذلك مشاعر العدوان ، بل البغضاء . وإذا بالذات تتمثل الأم على هـذا الشكل : تتمثلها قوة محبة راعية حامية ، وقوة بغيضة مناعة معادية . . وتجد الذات نفسها بعد ذلك محكومة بقوتين متعارضتين فى الضمير ، فلا تستطيع أن تهىء نفسها لهما معا . ويظهر أثر ذلك فى السلوك المتناقض للفرد تجاه شخص واحد . . فهو يحبه ويكرهه معا ، وهو يقبل عليه حينا ، ثم يضيق به ، وينفر منه حينا آخر ، خصوصا إذا بدأ ينتقده ويسدى له بعض النصائح أن يقلع عن تصرف معيب ، أو اتجاه ضار به فى الحياة ، أو إن حال ذلك الشخص دون استمتاعه بما يريد ، أو كان سببا فى الحد من حريته . . ويفسر لنا هذا فى بعض الأحيان ، تبرم الإنسان بأعز من يعزه ، وأحب الناس إليه . . تبرمه بوالديه مثلا ، أو زوجه ، أو أولاده ، أو أصدق أصدقائه . وقد يصل هذا التبرم والضيق ، إلى قلق نفسى فظيع ، ينهش فى أعصابه ، أو إلى شذوذ فى السلوك تجاه أحبائه . فهو يقبل عليهم ثم يدبر ، ويخلص لهم ثم يغدر ، ويبقى مترددا بين هذين النقيضين فى السلوك .

وقد تلجأ الذات إرضاء لهاتين القوتين المتعارضتين ، المتمثلتين المتقمصتين في الضمير ، إلى إسقاطه [1] على أشياء خارجية : على أشخاص عطوفين محبين يقابلون مظهر الحب فيه ، وعلى أشخاص طالحين قاسين يمثلون ما به من مظهر العداء والبغضاء . وأوضح مثل لذلك ، القصص الخرافية ، التي نجد الأطفال يستمتعون بها الاستمتاع كله ، ويطلبون المزيد منها . . تلك التي تضم أبطالا عطوفين طيبين ، وأبطالا أشراراً قاسين . . فالأم الحنون ، أو الملاك الخيرة العطوفة ، تمثل صورة الأم الحقيقية المحبة الراعية في الضمير : والساحرة الخبيثة ، أو امرأة الأب القاسية ، تمثل صورة الأم نفسها المناعة المعادية . والرجل الصالح ، أو الملك الكريم ، يمثل صورة الأب الشفوق الحنون في الذات العليا . والغول أو العفريت الشرير يمثل صورة الأب نفسه القاسي ، الشديد في فظاظته وغلظته .

وقد يسقط الطفل ضميره على دمية من الدمى ، تمثل أمه أو أباه بمظهريه المتناقضين المتمثلين . فهو يقبلها ، ويتحبب إليها ويخدمها ، ثم يشتمها ويبصق في وجهها ويتنكر لها ويحطمها .

وسبب ثالث لعدم تكامل الذات المثلى ، ومن ثم الضمير : هو أن أكثر المظاهر الصارمة الزاجرة للذات العليا متمثلة في الحقيقة من الذوات العليا

---

(١) الاسقاط عملية لاشعورية بها ينسب المرء بعض صفاته لغيره . فمثلا قد نجد شخصا كذوبا يتهم غيره باطلا بالكذب ، ويشعر نتيجة لذلك بشيء من الراحة ، إذ كأنه بإسقاطه هذا العيب على غيره قد محاه من نفسه . وفي الحالة التي نحن بصددها قد يسقط الإنسان القوتين المتعارضتين المتمثلتين في ذاته العليا اللتين لم يستطع لهما توفيقا وهما مظهرا أمه أو أبيه من حيث أنه قوة حبية راعية من جهة ، وقوة بغيضة مناعة من جهة أخرى ، يسقطهما على شخص مثل صديق أو زوج ، أو شخصين مثل بطلين في قصة . وكأنه يرى فيه أو فيهما أمه أو أباه بمظهريه المتعارضين ، فيحب شخصا ويكره الشخص نفسه ؛ أو يحب بطلا عطوفا في قصة ويكره بطلا آخر قاسيا في القصة نفسها . وكأن الصراع الداخلي الذي يقاسي المرء منه بين القوتين المتعارضتين يخف وطأته بهذا الإسقاط .

للوالدين ، لا من الوالدين نفسهما . فالوالدان فى معاملتهما للطفـل ، كثيراً مايريدانه أن يتصرف ويسلك سلوكه ، كما يحبانه أن يتصرف ويسلك ، لا كما هما يفعلان . أى أنهما يريدانه على أن يسير تبعاً لمثلهما العليا ، لاتبعا لمـاهما عليه فى الواقع . وكأنهما بذلك يأمران الطفل أن يفعل كما يقولان ، لا كما يفعلان . وبسبب هذا تنتقل التقاليد والعادات الاجتماعية فى الأسرة والمجتمع العام من جيل إلى جيل كما سبق أن ذكرنا من قبل . . إذ عندما يصبح الأطفال آباءاً وأمهات ، فإنهم يفعلون مع أبنائهم مثل ما فعل والدوهم معهم .

وعلاوة على تمثل الطفل وتقمصه للمثل العليا للوالدين ، فإنه يتمثل فى ضميره أيضا والديه الحقيقيين الواقعيين .

وإذا كان الفرق شاسعاً بين مثل الوالدين النظرية التى يمتصها الطفل عنهما ، ومثلهما العملية الموجهة لسلوكهما وأفعالها التى يتمثلها أيضـا فى ذاته العليا . ينشأ الطفل مرائيا منافقا ، يقول مالا يعنى ، ويعنى غيرمايقول ؛ ويمارس مالا يؤمن به ، ويؤمن بمالا يمارسه ... بل إنه قد يعمل على العكس تماما من تعاليم والديه ومثلهما العليا التى أشربها فى ضميره ، إذا كانت تلك التعاليم والمثل ، طيبة صالحة رفيعة . لأن الذات السفلى تجد فى هذا البون بين القوتين المتمثلتين فى الضمير عن الوالدين ، فرصة ذهبية لأن تمالىء القوة الأقرب شبها بها ، وتتحالف معها سرا ضد قوة التعاليم والمثل ، فتدفع الذات لتحقيق مآربها ، والانغماس فى شهواتها . .

وثمة سبب آخر لعدم تكامل الضمير هو تمثل الإنسان فى مجتمعه مثلا تناقض أو تتعارض مع ماتمثله من قبل عن والديه وبيئته المنزلية الأولى . وقد أشرنا إلى هذا من قبل[1]

(١) أنظر صفحة ٤٠ من هذا الـكتاب .

وثمة سبب آخر لعدم تكامل الذات المثلى والضمير وإثارة صراع فيه ، هو إصرار الوالدين على أن يقلدهما الطفل فى بعض التصرفات ، ولا يقلدهما فى بعض التصرفات الأخرى . فهما يتطلبان منه أن يقلدهما فى نظافتهما وعطفهما على إخوته ، وضبطهما لمشاعره ، ولكن لا يسمحان له أن يسهر مثل مايسهران ، ويدخن كما يدخنان ، وأن يصحبهما فى جميع زياراتهما ، وأن ينام معهما إلى غير ذلك . وبمعنى آخر ، فإنه يطالب بأن يتمثل ماهو ثقيل بغيض لقلبه من حياة الكبار ، ويتمثل فى الوقت نفسه كل ماهو لذيذ سار على أنه محرم ومحظور . ويبقى هذا جزءًا ثابتا من شخصيته ، وقوة لاشعورية فى ضميره تزجره على الدوام ، وتمنعه من أن يقوم فى حياة الرشد بما يجب أن يقوم به بناءًا على ما يتمثله من مجتمعه . وكأن هناك صراعا عنيفا يحدث بين طبقات الضمير اللاشعورية الطفلية العميقة التى تحوى تلك المحرمات والمحظورات ، وبين المثل شبه الشعورية التى يتمثلها فى الطبقات السطحية من الضمير نتيجة لاتصاله بالنظم التى تسود مجتمعه . ومعنى ذلك أن يشعر الإنسان فى بعض الأحيان أنه مسموح له أن يقوم بعمل معين ، بل قد يشعر أن من واجبه أن يقوم به ، ولكن قوة خفية ، ودافعا لاشعوريا ، وهاتفا باطنيا ، يدوى من أعماق ضميره ، بأن هذا الواجب محرم عليه . والمثل فى ذلك ماسبق أن ذكرنا فى الباب الأول من أن الضمير قد يمنع الإنسان من ممارسة مهنته التى أعد نفسه لها ، فيجعله يتبرم بها ، أو يهرب منها .

والمثل فى ذلك أيضا ، مثل الرجل الذى كان شديد الحب لأمه حتى إذا مرضت مرض الموت ، أتت صديقة لها ترعاها وتعنى بمنزله . فلما ماتت الأم ، أراد الرجل أن يظهر للصديقة عرفانه بجميلها ، فخطبها ، وتحدد موعد زواجهما . وإذا بالرجل يمرض مرضا فجائيا يوم الزواج الموعود فيؤجله إلى يوم آخر . فلما حان ذلك

اليوم ، انتحر . وتفسير ذلك أن الرجل كان يرى بشكل لاشعورى شبها بين هذه السيدة وأمه ، وأن حبه لأمه بالعنصر الجنسي المكبوت طبعا ، قد تحول نحو هذه السيدة ، فكأنه بزواجه بها يتزوج أمه المحرمة عليه . ولم تطق ذاته العليا ذلك ، فأمرضته فى أول مرة حتى لا يتم الزواج ، ثم أرغمته على أن ينتحر فى المرة الثانية حتى لا يرتكب الخطيئة بزواجه من تلك السيدة .

من كل هذا نرى ، أن تكوين الضمير المتكامل فى الإنسان مهمة غير يسيرة مطلقاً ، بل وفى بعض الأحيان غير ممكنة، نتيجة للظروف الاجتماعية التى تحيط الإنسان منذ طفولته ، والتى لا قبل له على تغييرها أو التأثير فيها ، لقلة حيلته وضعف قواه إزاءها . فكم من طفل يضطر لأن يعاشر أبا سكيراً آثما منحل الأخلاق مفكك المثل . . وكم من طفل يضطر لأن يعاشر زوجة أب أو زوج أم كاره له ، قاس عليه ، يعامله كما لو كان حملا ثقيلا بغيضا .. وكم من طفل يعاشر زوجين منقسمين ، يعيشان فى شقاق مستمر ، وخلاف دائم . . . وكم من طفل يمتص من والديه مثلا طيبة صالحة ، فإذا بالظروف تدفعه لأن يعيش وسط مجتمع مناقض فى مثله لما تمثل من والديه ، يعج بأنواع الرزايا والرذائل والإجرام ، فتزلف إليه هذه المثل الاجتماعية ويتمثلها ضميره فى طبقاته السطحية ، ثم تنخر فيه شيئا فشيئا حتى تواجه مثله العميقة الأولى التى تقمصها من والديه . وإذا بصراع عنيف داخلى يحدث فى الضمير يرهق الذات ويجعلها فى حيرة مرة ، ويستنفد جزءًا كبيراً من طاقتها و نشاطها العقلى ، فيخر المرء متعبا مريض النفس والعقل والجسم . وقد تتغلب المثل الفاسدة على الصالحة ، فى السيطرة على الذات ، تعاونها فى ذلك الذات السفلى التى تتملق الذات عن طريق ذلك التركيب الدخيل الجديد الفاسد فى الضمير — فتندمج الذات فى المجتمع وتنغمس فى شروره ، ويبرر الإنسان ذلك بأنه يريد أن

يعيش ، أو بأن على عاتقه مسئوليات أسرة ، وتربية أطفال ، وغير ذلك .

ومن أجل هذا نجد فى تلك المجتمعات المضطربة بلجج الفساد ، المضطرمة بنيران الشرور ، أفراداً ينقلبون من حياة طهر وصلاح ، إلى حياة شر وطلاح . وليت الأمر ينتهى إلى ذلك . بل إن هؤلاء يصبحون مثلا لأطفالهم وذويهم ، فيمتصون منهم تلك النزعات الجديدة ، وتنطوى عليها ضمائرهم التى على هداها يسيرون فى قافلة الحياة .

وهكذا يتفاقم الشر ، ويدب الفساد سريعا فى أوصال المجتمع . وتحيا الناس حياة بهيمية ، حياة الوحوش فى الأدغال ، حياة غدر وخيانة وفوضى أخلاقية ، وابتلاع القوى للضعيف . وبذلك يتفكك المجتمع كما تفككت ضمائر الناس وانحلت ، فطغت عليها ذواتهم السفلى أو ميولهم البهيمية الهمجية .

إن تكوين الضمير كما سبق أن ذكرنا ، يبدأ منذ الطفولة الأولى ، وينبع من الوالدين . فإذا أردناه أن يكون ضميرا منسجما فى قواه ، متكاملا إلى حد بعيد ، فيجب على الوالدين أن يعملا على أن تكون المثل العليا التى يتمثلها الطفل منهما متكاملة متضافرة ، وذلك أولا — بانسجامهما معا فى حياتهما ولو من أجل الطفل . وثانيا — باتفاقهما معا فى طرق تربيته ، فلا ينقض الواحد منهما مايبرمه الآخر مع الطفل ، ولا يكون صارما والآخر قاسيا . وثالثا — بأن يسير كل منهما على طريقة واحدة ، ومبدأ واحد فى تربيته للطفل ، فلا يكون صارما معه حيناً فى أمر من الأمور ، ثم متساهلا حيناً آخر فى الأمر نفسه . ورابعا — أن ينظرا إليه طفلا ينمو ، لا رجلا اكتمل نموه ، فيطبقان عليه معايير الراشدين ، ويرسمان له ذاتا مثلى أرفع بكثير من قواه وإمكانياته .

ويساعد على تكامل قوى الضمير ، الانسجام الذى يحدث فى تربيته فى منزله ومدرسته ، وهى المجتمع الثانى الذى يمتص الطفل منه قوى جديدة من قوى الضمير . فالأوامر والنواهى فى البيت والمدرسة يجب أن تسير دائما فى اتجاه واحد . ولذلك ينادى المربون دائما بوجوب ايجاد صلة وثيقة بين البيت والمدرسة ، وتبادل الرأى بينهما فى تنشئة الطفل .

كما يساعد على تكامله أيضا ، أن تكون الآباء والأمهات والمربون ، مثلا عليا واقعية للناشئين . فلا يأمر المربى الطفل أمرا ينقضه هو فى حياته الخاصة ، ولا ينهاه عن شىء يقوم هو به .

ويجب أن تكون النظم الاجتماعية السائدة ، نظما صالحة ، وأن يكون المتنفذون على هذه النظم أشخاصا صالحين ، ذوى مثل عليا من عدل وإيثار وأمانة وغير ذلك .

وأهم هذه الشروط كلها لتكامل الضمير ، الشرط الذى يتصل بالوالدين اللذين هما نواته وأساسه ، وهو لحسن الحظ أسهل الشروط فى إمكان تحقيقها . إذا ما تذكر الوالدان أنهما مسئولان عن الطفل ، وأن من حقه عليهما أن يتعهداه تعهدا صحيحا ، ولو أدى الأمر لأن يؤدبا نفسهما من جديد .

بهذه الشروط وبغيرها يعيش الإنسان فى أمن مع نفسه ، وفى أمن مع غيره ، وفى أمن مع النظم الاجتماعية ، لأنه يصبح ذا ضمير منسجم فى تركيبه ، آمن من أى صراعات خطيرة تنشب بين قواه .

الباب الثالث

عقاب الضمير والجريمة والعقاب

العقاب والحاجة إليه :

وجدنا من البابين السابقين أن النفس البشرية نفس معقدة ، وذلك للسببين الآتيين :

(أولا) لأنها عدة أنفس مختلفة : نفس همجية وحشية لا تعرف خيراً أو شراً ، ولكنها تسوق الإنسان لتحقيق دوافعها الغريزية فى حالاتها البدائية . وهى فطرية غير مكتسبة . ونفس واقعية تتكون فى حيـــاة الفرد نتيجة اتصالات النفس الأولى بحياة المحسات التى يعيش الإنسان فيها ويتأثر بها . وتزخر هذه أيضا برغبات مكبوتة تنافى المبادىء الاجتماعية والخلقية . ثم نفس عليا أو ضمير يتكون نتيجة تحكم أولى الأمر فى الذات ، بدءاً بالوالدين منذ الطفولة الأولى ، واضطرار الذات لأن تتمثلهم حكاما آمرين ، ومحبين عطوفين ، وناهين قاسين .

(ثانياً) لأنه ليس من السهل إيجاد تناسق وتوافق بين هذه الأنفس الثلاث . وذلك لأن كلا منها لها أهداف تغاير الأخرى ، وكلا منها من أجل ذلك تتربص الفرص بالأخرى حتى تتغلب عليهـا ، وتتفرد دونها بالحكم فى توجيه سلوك الإنسان . فالضمير يتحكم فى النفس الدنيا أو الذات السفلى ، ويمنعها من أن تحقق أهدافها بالشكل الوحشى الذى جبلت عليه . ويتحكم

أيضا فى الذات أو النفس الواقعية ، فيمنعها من أن تحقق الرغبات التى تتناقض مع النظم الاجتماعية والتقاليد والمثل الخلقية ، التى تكون الجزء الأكبر من الضمير . ثم إنه يقف فى الوقت نفسه حارسا فظا غليظ القلب ، لما فى تكوينه من عناصر الشراسة والقسوة التى تكلمنا عنها من قبل .

وتقف الذات بين المطرقة والسندان ، تهزها الذات السفلى من الحضيض ويمسك بأذنها الضمير من أعلا . فإن خالفته شدها بقوة وعنف ، وكشر عن أنيابه لها ، وعاقبها عقابا مبرحا ، قد تقع بسببه فريسة لأمراض مختلفة ، ربما تنضح على جسم الإنسان .

ولأهمية العقاب رأيت أن أتناوله فى هذا الباب مبينا أثره فى سلوك المرء سواء كان صادراً عن الضمير ، أو عن قوى خارج الضمير .

ليس من شك فى أن إحدى العواقب الهامة لتكوين الضمير — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — هو بزوغ الشعور بالذنب إذا ما قام الإنسان بما ينافى الضمير ، أو فكر مجرد تفكير فى ذلك . وهذا الشعور خاص بالإنسان فى الغالب ، ولو أننا قد نجده بشكل أولى بدائى فى بعض الحيوانات الراقية الأليفة مثل الكلب . فنى بعض الأحيان عند ما يقوم هذا الحيوان بعمل غير مسموح له ، نتبين عليه شيئا من مظاهر الشعور بالخطيئة من غير أن يوجه إليه لوم ، أو يفرض عليه عقاب .

والذنب قائم على الخوف . ولكنه يختلف عنه فى أنه يستلزم للشعور به ، تكون عواطف خلقية تهدينا إلى ما ينبغى لنا أن نفعله ، وما لا ينبغى لنا أن نقربه . . أما الخوف الذى يثيره الذنب ثم يندمج فيه بعد ذلك ، ويكون معه وحدة متكاملة . فهو خوف من العواقب المؤلمة التى قد نقاسيها نتيجة عدم

السير فى ضوء تلك العواطف الخلقية . وتختلف هذه العواقب فى النوع ، من تعذيب جسمى ، أو لوم ، أو سحب للحب ، إلى شعور صرف بالذنب والحقارة وبلبلة النفس ، وقلقلة البال . وتختلف فى الدرجة من صفعة الوالد أو لوم بسيط يوجهه ، إلى حكم بالإعدام يوقعه القانون ؛ ومن وخزة ضمير إلى شعور دائم بالخزى والعار ، بل إلى الانتحار . والذنب ، كأية حالة انفعالية مثل الغضب أو الاشمئزاز ، هو حالة نفسية من التوتر . ولكن الذنب بالرغم من ذلك ، يختلف عن الانفعالات البسيطة مثل الخوف والغضب والاشمئزاز وغيرها ، فى أنه لا يتصل ، كما يتصل أى انفعال من تلك الانفعالات ، بنوع خاص معين من السلوك ، محدود فى الغالب تحديداً طبيعيا حيويا . فالخوف يتصـــل بالطبيعة بالهرب . والغضب بالاعتداء ، والاشمئزاز بالنفور . وحالة التوتر التى تنشأ عن إثارة كل من هذه الانفعالات الثلاثة ، تعالج بالقيام بالسلوك الذى يتصل بها : بالهرب فى حالة الخوف ، أو العدوان فى حالة الغضب ، أو النفور فى حالة الاشمئزاز . ولكن الشعور بالذنب انفعـال خلقى اجتماعى . ولذلك يجب أن يعـالج التوتر الناشىء عن إثارته بشكل خلقى اجتماعى أيضا . حقيقة إن الذنب يتضمن ارتكاب خطيئة أو على الأقل إغراءاً بارتكابها . . والخطيئة تضر بالغير ماديا أو عقليا أو اجتماعيا . . . والإنسـان ، مثل الحيوان ، يغضب إذا أصابه أحد بضرر ، ويسلك تجاهه سلوك العدوان . فإذا كان هذا العدوان غير مباشر ، وقائما على أسـاس من التفكير ، سمى انتقاما . . وعنـد ما يصطبغ العدوان بصبغة أخلاقيـــة ، أى يوجه ضـد الشخص الذى ارتـكب الخطيئة سمى عقابا . وبذلك يتضح لنا أن العقاب الخارجى ، ينشأ عن الدافع الطبيعى للعدوان .

والأفعال والتصرفات التى تثير الذنب ، لـكونها أفعالا وتصرفات قد

تسىء للغير ، تتوقيع القائم بها تحت سوط العقاب . وباقتران هذين ، الذنب والعقاب ، يتعلم المرء أن يتوقع العقاب دائما عند ما يشعر بالذنب .

وتوقيع العقوبة على المذنب ، يعمل على أن يحرر أولئك الذين أصابهم بالضرر ، من مشاعر الحنق والغضب التى أثارها فيهم ، تسببه فى الإضرار بهم . وبذلك يهدأ غضبهم بعد توقيع العقوبة عليه . ويمكن أن ينطبق هذا على الوالدين عند ما يذنب طفلهم . ويمتص الطفل اتجاههم العدوانى المعاقب نحوه ، ويتمثله فى نفسه عند ما يتكون الضمير عنده .

ليس غريبا إذن أن يتعلم المرء فى الحياة ، ليس فقط أن يتوقع العقوبة عندما يذنب ، ولكن أيضا أن يتحرر من ذنبه ، ويستشعر الراحة عندما يعاقَب ، نتيجة لتمثله صورة والديه اللذين يضرانه عندما يذنب بأن يعمل مالا يرضيهما مثلا . وكما أن الوالدين كانا يستشعران الرضا فى هدوء سورة غضبهما عند توقيعهما العقوبة على طفلهما ، فكذلك ترضى الذات العليا أو الضمير ، وهو وريث الوالدين عندما يوقع العقاب على الذات . ولكن الضمير قد يكون أقسى بكثير من الوالدين نتيجة وجود المشاعر العدوانية المتجهة ضد ذات الطفل فيه ، كما بينا فى العامل الثالث لتكوين الضمير الذى تكلمت عنه من قبل [١] . ولهذا السبب قد يوقع الضمير على الذات عقوبة قاسية لا تتناسب مع الذنب الذى اقترفته .

فالذنب إذن يثير حالة توتر بين الذات والذات العليا أو الضمير ، يماثل التوتر الذى يحدث بين الطفل والوالدين ، إن فعل مالا يرضيان عنه . والعقوبة هى الوسيلة لإزالة هذا التوتر ، واستشعار الراحة ثانية . وبذلك

---

(١) أنظر صفحة ٢٧ من هذا الكتاب .

تلعب مقاساة المرء العقوبة إزاء الذنب ، الدور نفسه الذى يقوم به الهرب فى حالة الخوف ، والعدوان عند إثارة الغضب .

ليس أمراً مثيراً للدهش إذن ، أن يقول التحليل النفسى ، على ضوء البحوث التى قام بها فى الضمير ، إن هناك صلة نفسية وثيقة بين الذنب والعقاب . وإن المذنب يشعر بحاجته إلى العقاب ، حتى يزول التوتر النفسى الذى يسببه الذنب الذى يقترفه ، إذا سدت هذه الحاجة . وفى ضوء هذه الصلة بين الذنب والعقاب ، نستطيع أن ندرس أصل النظام الاجتماعى للعقوبة ، وأساس فكرة العدالة المتصلة بها ، التى يستهدف المجتمع عند تطبيقها على الأفراد ، إيجاد اتزان وتعادل بين الجريمة والعقاب ، وأيضاً بين الفضيلة والثواب .

ويظهر لنا من العجالة السابقة أن العقاب والعدالة ليسا شيئين جديدين ابتكرهما رجال القضاء والتربية ، لأن أصولهما موجودة فى التركيب العقلى للإنسان منذ الطفولة الأولى . فبمجرد أن يبزغ الضمير نتيجة لتحكم الوالدين وسيطرتهما على الطفل ، تظهر لديه الحاجة للعقاب ، التى تدفعه ذنوبه لتحقيقها بصور تتناسب مع قدر هذه الذنوب ، فيتضمن هذا التعادل بينهما فكرة العدالة .

طرق التعبير عن الحاجة للعقاب :

قد يكون تحقيق الحاجة للعقاب بطرق مختلفة ، منها ما يأتى :

(١) مقاساة العقاب نفسه . وتبدو هذه المقاساة أهم الطرق ، وأكثرها بدائية لتخفيف الذنب على الإنسان . بل قد تعمل على إزالته ومحوه فيشعر الإنسان براحة نفسية كبرى . وقد يعمل المذنب بنفسه — دون أن يشعر — على أن يقاسى العقاب على يدى من يحق لهم العقاب ، أو عن طريقه هو . فكم

من مجرم يخطىء فى ارتكاب جريمته ، فيترك أثراً يدل عليه ، ويرشد المحققين إليه ، مثل بطاقته أو عصاه أو منظاره ، إلى غير ذلك . وكم من مذنب يعمل على أن يقاسى من ذنبه ، بأن يزل فى الطريق فيصاب برضوض ، أو أن يصطدم بشجرة أو عمود مقام . وكم من طفل يدعو على أمه بالمرض أو الموت إن هى قست عليه ، أو حرمته متعة لذيذة ، فإذا به يعض لسانه ، أو يلطم فمه . وسنرجع إلى هذا مرة أخرى فى شىء من الإسهاب .

(٢) وثمة طريقة أخرى لسد الحاجة للعقاب والتحرر من الذنب ، وهى التعويض .

إن توقيع العقوبة على المذنب قد يخلصه من ذنبه إلى حد ما ، وقد يسكن غضب الشخص الذى اقترف ذنبه ضده . ولكن هذا التسكين ، إنما هو تسكين نفسى فقط . أما الأضرار المادية التى ربما تتسبب عن المذنب ، فتظل باقية . ولذلك تثار الرغبة فى إصلاح هذه الأضرار ، ولا تتحقق بعقاب المذنب ومقاساته فقط . فمثلا إذا سرق لص ملابسك ، فقد تشعر بالراحة إذا ما أوسعته ضربا ، أو سلمته للشرطة . ولكن هذا العقاب لا يرد لك ملابسك . وقد يكون من الأفضل أن تطالبه برد ما سرقه منك . ولذلك نجد أن التعويض أفضل من العقاب فى تخفيف غضب المعتدى عليه ، وفى تخليص المذنب من ذنبه لعدة أسباب أهمها ما يأتى : أولا — لأنه يصلح شرا وقع . وثانيا — لأنه يتضمن تكيفا للسلوك تجاه الشر الذى ارتكب تكيفا نوعيا وكميا . وثالثا — لأنه يتضمن تنازلا عن دافع الانتقام الهمجى تجاه المذنب ، اللهم إلا إذا ألح فى طلب العقوبة والتعويض معا ، كما يحدث فى بعض الأحيان ، حيث تكون العقوبة علاجا لنتائج الجريمة من الناحية النفسية ، ويكون التعويض علاجا لها من الناحية المادية .

وقد أدت بحوث بياجيه Piaget عالم النفس السويسرى المعروف بدراساته لنفسية الأطفال وعقليتهم ، إلى أن التعويض ، طريقة لمعالجة الذنب ، يأتى متأخراً فى حياة الطفل ، عن العقوبة المجردة . ويمكن الرجوع فى ذلك إلى كتابه « النمو الخلقى للطفل » Moral Development of the Child

وأثبتت بحوث علماء التحليل النفسى على أن التعويض أو الإصلاح ، تنبت بذوره بشكل بدائى فى الطفولة المبكرة . ولكن بالنسبة لما لعناصر العدوان التى تشملها الذات العليا فى ذلك العهد من قوة وغلبة ، يتضاءل التعويض ودوافع الإصلاح إزاءها . وتبدو العقوبة كأنها الطريقة الوحيدة التى بها يعالج الذنب . ولذلك يرى علماء التحليل النفسى وجوب تشجيع الإصلاح والتعويض مع صغار الأطفال ، وتنمية روح العدالة فيهم ، وعدم اللجوء فقط إلى العقاب المجرد . فإذا عبث الطفل الصغير فى بعض الأدوات بالغرفة ، طالبناه بأن يرتبها وينظمها كما كانت ، وإذا خطف شيئاً من متاع أخيه ، طالبناه بأن يرده إليه ثانية ، وهكذا .

إن الإصلاح أو التعويض فى معاملة الذنوب ، قد يكون قاسياً ومؤلماً للمذنب ، وبذلك يتضمن العقوبة أيضا . فالتعب الذى يصيب الطفل من جراء ترتيبه الأدوات التى عبث بها ، هو أيضا بمثابة عقاب له . ورده متاع أخيه ، فيه حرمان له مما صار فى يده ، واعتبره ملكا له .

ويبدو الألم فى التعويض على أشده ، فى ألوان التضحيات والقرابين التى تقدم تكفيراً للذنوب ، سواء أكانت تضحيات فردية أم جمعية ، مثل تضحية الفرد بطعامه فى الصوم ، إذا ما مارسه تكفيراً عن إثم ؛ أو إطعامه بعضَ الفقراء والمساكين من قوته وماله ، إذا ما ارتكب خطيئة الإفطار . ومثل تضحية الجماعة بفرد منهم أو ببضعة أفراد كما يحدث فى المجتمعات الهمجية ،

وكما كان يحدث من قبل فى بعض المدنيات القديمة . والمثل على ذلك التضحية بفتاة كان يقذف بها فى النيل كل سنة ، استرضاء له ، وتكفيراً عما جناه القوم من آثام .

(٣) وثمة طريقة أخرى لمعالجة الذنب وهى الاعتراف . والاعتراف على أشكال ، منها أن يعترف الإنسان بنفسه لنفسه بما ارتكب من ذنوب وآثام ؛ أو أن يعترف للغير بها مثل أب أو أم أو صديق أو قسيس ؛ أو أن يكون الاعتراف لمن أذنب فى حقهم ، أو أصابهم بضرر ، كاعتراف المجرم بجرمه للسلطات التنفيذية أو التشريعية .

وقد يكون الاعتراف غير مقصود . والمثل فى ذلك مثل الزوج الخائن الذى ينادى زوجته باسم عشيقته عن غير قصد ، ومثل المجرم الذى يكشف بنفسه عن جرمه ، أو يترك دون أن يقصد ، آثاراً ودلائل تدل عليه ، لم يكن من المنتظر أن يتركها غبى أو مأفون ؛ مثل القاتل الذى كتب قصة عن جريمة قتل ، وذكر فيها جريمته ، وسرد وقائع وتفاصيل لم تكن معروفة لدى الشرطة ، ولم يكن من السهل عليهم أن يصلوا إليها . وبذلك مكن السلطات من إثبات الجريمة عليه . ومثل المجرم الذى يرجع إلى المكان الذى ارتكب جريمته فيه ، فيوجه إليه الأنظار ، ويمكن المسئولين من أن يتتبعوه حتى يكشفوا عن إجرامه . والأمثلة الواقعية على ذلك كثيرة . إن الكشف عن الجرائم الكبرى مثل السرقة والقتل التى لا يوجد لها شهود عيان ، والتى ربما تكون دبرت تدبيراً محكما ، هذا الكشف كثيراً ما يحدث بمساعدة المجرم نفسه : بكلمة يقولها ، فترفع النقاب عنه ، أو سلوك يسلكه فينم عليه . وقد يعترف اعترافا صريحا بجريمته دون أن يكون هناك مبرر ظاهرى لهذا الاعتراف ، الذى يعلم ولا شك أنه قد يودى بحياته . وهنا نواجه تناقضا

غريبا فى سلوك المجرم وتصرفاته ، عنـد ما يرتكب جريمته فى تدبر وحذر وتفكير فى كل شىء تقريبا ، ثم يقول كلمة أو يترك شيئا تجعل يد القانون تمتد إليـه وتسلط عقابها عليه . إننا لا نعد هذا خطأ عن فشل فى التفكير واختلالا فى الحذر ، لأن طريقة ارتكاب جريمته تدل على تفكير وحذر شديد . وإنما نعتبر الخطأ من النوع النفسى الذى تدفعه إليه قوة خفية عنه لا يستطيع لهـا مقاومة ، ولا تجعله يدرك مطلقا هذا الخطأ الذى يقع فيه ، عند ما يقع فيه . هذه القوة الخفية اللاشعورية فيه التى تدفعه لأن يخون نفسه ، هى الحاجة إلى العقاب الناتجة عن التوتر النفسى اللاشعورى ، الذى يئن تحت ثقله فى داخل نفسه .

ولعل القارىء قد تتبع جرائم القتل الشنعاء التى اتهم بارتكابها من أطلقوا عليه اسم «وحش الاسكندرية» فى العام الماضى[1]. لقد كان من الممكن أن تنصب الشرطة له الشراك بعد أول جريمة ، أو بعد الجريمة الثانية ، لو أنهم فكروا تفكيراً سيكولوجيا فى المجرم . وبذلك كانوا ينقذون أرواحا خمسة ذهبت ضحية «الروتين» البوليسى . لقد ارتكبت الجريمة الأولى فى الليل ، وفى حديقة واسعة ذات أشجار يؤمها نوع خاص من الناس ليلا . وارتكبت الجريمة الثانية ليلا وفى مكان مشابه ، وكذلك الجرائم الأخرى . ثم إن المجرم بعد اعتدائه على ضحيته الثانية ، أى بعد اكتشافهـا مباشرة إلى أحد الشرطة ، عند ما كانوا ينقلون الضحية إلى المستشفى ، وسأله « هل قال القتيل شيئا ؟ »

---

(١) هو رجل فوق الأربعين له زوجة وأطفال ولـكنه كان مصابا بشذوذ جنسى . إذ كان مغرما بالجنسية الذكرية ، وكان فى الغالب يلعب الدور السلبى فيهـا . وكان يصيد فرائسه من الشبان الشاذين أيضا فى الجنسية الذين يقاسون من الجنسية الذكرية المزدوجة أى أنهم يقومون بالدورين الايجابى والسلبى منها . وكان هذا الرجل يقتل فريسته من الشبـان بعد أن يرضيا سويا غريزتهما الجنسية معا على شكل شاذ منحرف .

لقد كان هذا السؤال كافيا للنهوض بمراقبته حتى يمسك متلبسا بجريمته التالية قبل أن ينجح فى إتمامها . ولكن الشرطة لم تستطع أن ترى شيئا فى تماثل الأمكنة التى ترتكب الجرائم فيها ، ولم تستطع أن تستشف شيئا من هذا السؤال الغريب . ولم تستطع أن تصل إلى المجرم إلا بعد أن اعترف أحد الضحايا وقد شاء حظه أن تكون الرصاصة التى أطلقها المجرم عليه ، رصاصة غير قاتلة . بل إن المجرم كان يفعل أكثر من هذا ، إذ كان يتصل بضباط الشرطة ، ويتناقش معهم فى هذه الجرائم التى يرتكبها ، ويبدى رأيه فيها . إن هذا الاهتمام الغريب من جانبه ، كان يجب أن يستلفت إليه أنظار البوليس من أول الأمر ، فيقوموا على الأقل بمراقبته .

أو خذوا مثلا آخر عن جريمة قتل تاجر فى متجره ، حدثت فى الليل ، ولم تكشف إلا فى وقت متأخر فى صباح اليوم التالى . وقبل الكشف عنها ، اشترى رجل جريدة من بائع صحف ، ومر عليه بعد ذلك بقليل قبل أن تكتشف الجريمة . فسأله البائع إن كان قد قرأها . قال « نعم ، ولكن ليس فيها شيء عن القتل » . فسأله البائع « جريمة قتل أخرى » ؟ قال « نعم فى الشارع الفلانى » . وكان هذا الرجل هو القاتل[١] .

وقد يكون الاعتراف صريحاً ومقصوداً وبروية وتفكير . مثلا عند ما يذهب المجرم من تلقاء نفسه فيعترف بجرمه لذوى الشأن ، بعد أن يزيد التوتر الداخلى الناشيء عن ذنبه ، وتتغلب حاجته اللاشعورية للعقاب على إرادته وعلى ذاته .

(٤) وطريقة أخرى لمعالجة الذنب ، هى الكبت .

وذلك بأن يكبت المذنب الشعور بذنبه ، كما تكبت الرغبات المنافية

---

(١) يلاحظ من يقرأ رواية « الجريمة والعقاب » لمؤلفها دوستوفكى أن بطل الرواية بعد أن ارتكب جريمته صار يتردد على منزل المرأة التى قتلها . وحقاً يكاد المريب يقول خذونى » .

للأخلاق والنظم السائدة . ويبدو كأن المذنب قد نسى ذنبه وأصبح لا يشعر به، ولا تستثار عنده الحاجة للعقاب المتصلة بالمذنب بسبب ذلك . ويستمرىء بعد هذا أن يرتكب الخطيئة أو الجرم مرة ومرات بقسوة ودون خجل . وهذا ظاهر فى سلوك عدد من الناس ، خصوصا أولئك الذين لم تتكون ضمائرهم تكوينا قويا متماسكا ، ولم تكن مثلهم متسقة منسجمة متساندة . فالواحد من هؤلاء ، قد يرتكب خطيئة فيؤنبه ضميره ويشعر بالذنب ، ثم نتيجة لبعض التفكك الموجود فى الذات العليا ، كما سبق أن بينا عند الكلام عن الصراعات التى تحدث فى الذات المثلى ، يكبت هذا الشعور بالذنب . ويخطىء الإنسان بعد ذلك ويذنب ، بل ويجرم من غير شعور بذنب أو خجل أو عار .

ولذلك نجد أن السماح بارتكاب الخطيئة فى بعض الناس ، شر لهم ولغيرهم ممن يلوذون بهم ، وللمجتمع . لأن هؤلاء نتيجة لعدم تماسك قوى ضمائرهم ، ولتفكك مثلهم ، قد يستمرئون الخطيئة ، ولا يرون فى اقترافها شراً أو عيباً ، فيجنون بذلك على أنفسهم وعلى غيرهم ومن هنا نجد من الخطأ ، بل من السفاهة أن يقول بعض الناس ، أو تنادى بعض الفلسفات المغرضة بأن ليس من إيمان إلا بعد كفر ، وليس من توبة صادقة إلا بعد خطيئة كبيرة . إننا لانجد سنداً نفسياً لهذه الأقوال الفارغة الشريرة ، ولا لاعتبارها قاعدة عامة . بل إن علم النفس ليفندها ويخطئها ، تلك التى قال بمثلها من قبل شخص من أقذر الناس الذين عرفهم التاريخ ، وهو راسبوتين ، الذى كان يدعو للفساد بهذه الأقوال لأنه كان فاسداً منحلا . وبعض الفاسدين الآثمين ، خوفا من أن ينفر المجتمع منهم ، يحاولون أن يغروا الناس إلى الضلال ، حتى يصبحوا واحداً من كل ، أو على الأقل واحداً من بعض . لأن الإنسان مهما كان ، لا يطيق أن

يكون واحدا مفردا ، بعيدا عن الكل ، ناشزا من المجتمع . ويستندون فى ذلك إلى أن الضلال يستهوى النفس السفلى الهمجية ، ويتصل بالغرائز فى حالتها الوحشية ، ويثير اللذات المتصلة بها ، وبالرغبات المكبوتة فى الذات أو النفس الواقعية .

٥ — وثمة طريقة أخرى لمعالجة الذنب هى التبرير :

وهى أن يبرر المذنب ذنبه بشكل من الأشكال . فالتاجر الذى يقترف الإثم فى تجارته ، فيغش الناس ويخدعهم ، ويكذب عليهم ، يبرر إثمه بأن المهنة تتطلب ذلك ، وأن التجارة شطارة ، وأنه بعمله هذا لا يكسر القانون . والرجل القاسى ، أبا كان أو حاكما ، يبرر قسوته بأنها وسيلة لصلاح أولاده أو مجتمعه . والسارق قد يبرر سرقته بجوعه أو جوع أطفاله وهكذا .

وهذا التبرير فى معالجة الذنب أسوأ من طريقة الكبت التى سبق أن شرحتها الآن . لأن الإنسان يستند بها إلى دعامة فى اقتراف الذنب أو الخطيئة ، ويمنح نفسه الحق فى أن يرتكبها . ولكن المجتمع الصالح ، يمكن أن يهدم بسرعة تلك الأسس الواهية ، التى يرتكن إليها المذنب ، أمام عينيه . فالتاجر إذا لقى إعراضا من الجمهور ، يبدأ يشعر بذنبه ، ويلغى مبرراته . والأب القاسى ، أو الحاكم المستبد ، يلقى إعراضا من ابنه أو شعبه ، وربما يجابه برد فعل على شكل ثورة . والسارق يفقد عطف الناس ، بل ربما يعانى عقابهم إياه ، فيرجع عن إجرامه ، ويفكر فى طريقة اجتماعية لكسب عيشه .

ليس التبرير إلا ستاراً يغطى ما تزخر الذات به من رغبات مريضة ، أو صفات رديئة ، تعمل الذات العليا على كبحها وعدم السماح لها بالتحقيق . إنه وسيلة الذات فى استدرار عطف الذات العليا عليها ، باللجوء إلى بعض

مكوناتها القريبة الصلة بها ، مثل دافع التفوق دون كسر للقانون فى حالة التاجر ، وصلاح الطفل فى حالة الأب القاسى ، والعطف عليه فى حالة السارق الجوعان الذى يبرر جرمه بجوعه وجوع أولاده . إنه وسيلة الذات للتغرير بالذات العليا أو الضمير حتى تحقق رغباتها التى تشعر فى داخل نفسها أنه لايوافق عليها . إنها دموع التماسيح تذرفها الذات أمام الضمير القوى ، كيما تلين قلبه ، وتكسب عطفه . وقد يغتر الضمير بها إلى حين ، ثم إذا به يكشفها ؛ وتبدأ الذات تشعر بالذنب شعوراً فظيعاً ، وإذا بها تتضاءل تحت ثقل الذنب كما يتضاءل الطفل المخطىء أمام والديه . وإذا بالعقاب يأتى على صورة ندم وحسرة واستغفار وتكفير عما جنته الذات .

(٦) وثمة طريقة أخرى لمعالجة الذنب . وهى أن يسقطه المذنب على غيره من الناس ، وبذلك يتخلص منه ، بل ويبدأ ينتقد هذا الغير ويلومه على ذنبه هو الذى أسقطه عليه وألصقه به . إن الحياة مليئة بهذا الصنف من الناس الذين تثقل عليهم ذنوبهم فلا يستطيعون أن يتحملوا ثقلها ، فإذا بهم يقذفون بها على غيرهم ، ثم يرون أنفسهم المذنبة فيهم ، ثم يلومونهم عليها وهم بذلك يلومون أنفسهم حقا بشكل لاشعورى . وكأنهم بهذه العملية كلها يتخلصون من ذنوبهم .

وقد يصل الحال بالفرد من هؤلاء إلى اتهام الغير اتهامات باطلة ، والشكوى منهم إلى أولى الأمر باعتدائهم عليه اعتداءًا منكراً . وكم تمتلىء ملفات القضاء بحالات من هذا النوع . وكم من أبرياء قاسوا ، وربما ذهبوا ضحية إسقاط الغير ذنبهم أو جرمهم عليهم .

ويظهر الإسقاط بشكل متطرف فى ذلك المرض العقلى المسمى «بارانيا»

إذ يكون لدى المريض إما يسمى بأوهام الاتهام Delusions of Paranea Persecutions فيشعر أن هناك أشخاصاً معينين يتآمرون ضده ، ويقفون فى طريقه ، ويتجسسون عليه ، ويتكلمون ببذاءة عن أفعاله .

ويمكن تفسير ذلك بأن دوافع الذنب والعدوان الموجودة لدى المريض ، تسقط على أشخاص آخرين . وعلى هذا الشكل يستشعرهم ويراهم ، ويوجه إليهم مختلف الاتهامات ، التى هو فى الحقيقة محل بواعثها ، ولكنه لم يستطع أن يرزح تحت عبئها ، فأسقطها على غيره ، وأصبحوا بذلك فى نظره يضمرون بواعث العدوان هذه ضده ، ويزخرون بدوافعها التى يشعر أنهم يعملون على تحقيقها فيه . وليت الأمر ينتهى إلى ذلك ، بل إنه قد يطالب بمعاقبتهم على ذلك . أو (وهو الغالب) قد ينتقم منهم ، بالعدوان عليهم بل ربما بمحاولة قتلهم .

فالإسقاط إذن لا يمنع من العقاب . بل إنه يحول الذنب والعقاب معاً إلى شخص آخر ، فيكون بذلك ضحية لذنوب غيره وجرائمهم . إنه طريقة سهلة . ولكنها خطيرة ، يتخلص المذنب بها من شعوره بالذنب ، دون أن يتحمل فى ذلك عقاباً . ولكن ليت الأمر يقف عند هذا الحد . بل إنه يوقع غيره فى مشكلات هو براء منها ، ويصوره للناس مذنباً ومجرماً يستحق الجزاء . وكأنه بذلك يرضى دوافعه العدوانية الأولية ، ويسترضى بذلك ضميره وما يضمه من نزعات سادية قاسية .

وقد يحدث الإسقاط هذا من قبل جماعة من الناس على جماعة أخرى ، فيؤدى إلى حرب بينهما . وأقرب مثل تاريخى لذلك حرب إيطاليا ضد الحبشة ، وقد كانت الشرارة الأولى للحرب العالمية الثانية التى اكتوى العالم بنيرانها ، ولا يزال يعب من جحيمها ومرارتها . . فلقد أسقط الشعب

الإيطالى على الأحباش دوافع العدوان التى كانت تتأجج فى صدره ضد الأحباش[1] ، وصورهم للعالم معتدين آثمين يستحقون العقاب . وبذلك نشبت الحرب بينهم . وكثير من حروب الاستعمار ، شبت نيرانها عن طريق عملية الإسقاط هذه . إذ يتهم المستعمر القوى ، الشعب أو الحكومة الممثلة للشعب الذى يريد أن يبتلعه ، بأنه يقوم باستعدادات هائلة للعدوان . وما هذا العدوان الذى يتهم المستعمر الشعب الضعيف به . إلا العدوان الذى بدأت دوافعه قوية فى نفسه ، ثم أسقطها على الضعيف . إنها قصة الذئب والحمل تماما . . الذئب ملىء بروح الاعتداء الذى يسقطه على الحمل . . فهو يعكر صفو الماء الذى يستقى منه !! ثم هو من سلالة غنم اعتدوا على أجداده من قبل !!

ونجد الإسقاط أيضا فى القبائل المتوحشة ، إذا هاج بينهم بركان ، أو جرفهم سيل مغرق ، أو انتشر بينهم وباء مهلك . إنهم يستشعرون من هذا غضب الآلهة عليهم لذنوب تزخر بها نفوسهم . فإذا بالقبيلة تسقط ذنوبها هذه على قبيلة أخرى ، فتصبح بذلك مجرمة تستحق العقاب والتقتيل . أو قد تسقطها على شخص أو بضعة أشخاص منها ، يصبحون فى نظر القبيلة مجرمين مملوءين بأرواح شريرة ، فتعذبهم وتقدمهم قربانا للآلهة الساخطين .

فنى أونيتشا مثلا Onitsha على نهر النيجر فى غرب أفريقيا ، جرت عادة القوم ، أن يقدموا كل سنة شخصين قربانا للآلهة حتى يُرفع عنهم وزر آثامهم وخطاياهم . ويشترى القوم الشخصين بأموال تجبى على صورة تبرعات . فكل فرد ارتكب فى بحر السنة خطيئة مثل سرقة أو قتل أو زنا ، يدفع

---

(١) ساعد على ذلك إثارة موسولينى فى نفوس الطليان الرغبة فى الانتقام من الأحباش الذين هزموهم فى موقعة عدوى المشهورة سنة ١٨٩٦

حوالى الدينارين . وبهذا المال الذى يجمع من الآثمين المجرمين المذنبين ، يشترون شخصين من المرضى ، ويستأجران رجلا من جهة مجاورة لكى يقتلهما . ويحكى قسيس يدعى Taylor أنه شهد فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٥٨ قتل إحدى هاتين الضحيتين ، وكانت فتاة تبلغ من العمر عشرين سنة . جرها القوم وهى على قيد الحياة ، ووجهها على الأرض مسافة ميلين من منزل الملك حتى النهر ، بكل قسوة وفظاعة ، وكأنهم يجرون فيها آثامهم وذنوبهم ، صائحين : الشر !! الشر !!

إن إسقاط الإنسان ذنوبه على الغير يحدث فى كل وقت ، وبين الأعداء والأصدقاء على السواء . إنه نتاج الخطيئة الأولى للإنسان الأول . لقد ارتكب آدم وحواء إثم المعصية البشرية الأولى معا[١] ، ثم أسقط كلٌّ ذنبه على الآخر ، وعدّه مسئولا عن الكارثة التى حلت به . وربما كان الوازع اللاشعورى عند الرجل للإسقاط أقوى من تبرير المرأة ، لأنه خلق قبلها . وكأن ظهورها فى حياته كان بمثابة نذير شؤم له ، وسببا لطرده من النعيم . وقد دفعها إلى إسقاطها الذنب عليه ، أيضا بشكل لاشعورى ، أنه انغمس فى الخطيئة الأولى أكثر منها ، وكان شرها فى أكله التفاح المحرم . لدرجة أن واحدة منها وقفت فى حلقه ، فأصبحت بذلك وصمة أبدية له، ملتصقة به وبأحفاده من الرجال على مر العصور . تلك هى تفاحة آدم . ويظهر امتداد الخطيئة الأولى للجنسين ، وإسقاط كل منهما خطيئته على الآخر فى المثل المشهور «فتش عن المرأة» ، كلما حدثت جريمة أو خطيئة . وشعور المرأة الدفين بأن الرجال ظالمون وخونة لا يؤتمنون .

(١) الدليل السماوى على هذا هو الآية الكريمة التى تقول «فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة» .

وفى كثير من الأحايين نجد أن انتشار الوشايات والفضائح يقوم على أساس إسقاط مخترعيها وناشريها ذنوبهم وآثامهم على الأبرياء ، وخصوصا إذا كانوا يشعرون بشىء من الكراهية لهؤلاء . إن أولئك المحملة نفوسهم بالذنوب ، لا يكتفون بإلصاقها بالغير ، بل يتلذذون بما يوقع على هؤلاء من عقوبات ، أو ما يلاقونه من مقاساة . وكأن مشاعر العدوان التى تزخر بها ضمائرهم ، تجد الإرضاء والتحقيق فى مثل تلك العقوبات والمقاساة .

ولذلك يجب أن يقف المرء فى كثير من الحذر أمام الذين يكثرون من اتهام الغير ، وينتقدون تصرفاتهم ، ويرمونهم بالنقائص والخطايا .. لعل هؤلاء هم المذنبون الآثمون .. ولعل الغير أبرياء مطهرون مما ينعتون به .

بل قد يصل حد إسقاط الذنب الى أفظع من هذا . فيعاقب الشخص نفسه ، أو بالأحرى يعاقب الضمير الذات ، بعد إسقاط الذنب أو الجرم على الغير ، حتى يثبت فعلا أن الغير مجرمون . والمثل فى ذلك مثل الشخص الذى يقصد أن يؤلم نفسه ، فيضرب بالحائط رأسه ، أو يحدث جرحا فى جسمه ، ويتهم الغير بأنه هو الذى اعتدى عليه . نجد فى هذه الحالة أولا أن الشعور بالذنب الذى تزخر به الذات ، أسقط على شخص آخر ، فأصبح هو المذنب الذى يستحق العقاب ، وثانيا — لكى يبرر المرء العقوبة التى يجب أن يقاسيها غيره يعاقب نفسه ، وثالثا — تعمل عقوبة النفس أو الذات هذه على تخليص الفرد من الشعور بالذنب كلية ، ولو إلى حين .

مركب بوليكراتيس The Polycrates Complex

نلخص كل ما سبق فى أننا فى أغلب الأحايين نشعر ، ولو شعوراً ضئيلا بأننا لا نستطيع أن نصل فى حياتنا إلى مستوى الذات العليا ، أى أن ذاتنا

قاصرة ناقصة بالنسبة للضمير ، وأنها لا تسلك فى كل حين السلوك الذى يرضيه . ولذلك تشعر بالذنب ، ومن ثم بالحاجة للعقاب . ومعنى ذلك أن كلا منا مذنب تعس إلى حد ما . وأن كلا منا بسبب شعوره بالذنب أحيانا أو غالبا ، ضئيلا كان الذنب أو عظيما ، يبحث وراء الألم ، كما يبحث وراء اللذة والسرور . إذ عن طريق ألم العقاب ، يمكن أن يتخلص من عبء الذنب الذى يحدث توترا مضنيا فى داخل نفسه . فإذا لم يَخْبرُ الإنسان فى حياته ألما كافيا ، وكان كل شيء يسير سيرا مرضيا ، وكأن « حظا » كبيرا يلازمه فى جميع خطواته وأعماله وتصرفاته ومشروعاته ، يبدأ الإنسان يستشعر شيئا من القلق وعدم الارتياح ، وذلك لأن حاجته للعقاب والألم لم تتحقق . وكأن لدى الإنسان فى أعماق نفسه خوفا لا شعوريا من النجاح المطرد ، خوفا من التعاظم المستمر ، خوفا من السعادة المتواصلة . وكأن هذا كله نذير خفى بالشر ، وعلامة على حلول السقوط وحدوث الانهيار وتبدل السعادة شقاء[١] .

ألسنا نقول عند ما نضحك كثيرا « اللهم اجعله خيرا » ؟ أليس معنى هذا أن فى أعماقنا خوفا لاشعوريا من أن السعادة المسترسلة قد يعقبها ألم ومقاساة؟ ثم عند ما يقول الغربى ذو الحظ الحسن « أمسك الخشب » Touch wood لشخص يعدد له النعم التى تغدق عليه . . ألا يعنى هذا خوفا داخليا من أن تعقب هذه النعم نقمة ؟

إننا لنجد أثر هذا الخوف والقلق طوال حياة البشرية ، وفى كل عهود الإنسانية ، حتى فى تلك العهود التى كان أسلوب حياة الناس فيها حرا طليقا بهيميا يكاد لا يشعر الفرد بذنب يذكر مثل عهد الإغريق القدماء . وقد سموا هذا الغلو فى النجاح Hubris ، ومعناه الحرفى فى اللغة الاغريقية ، شدة

أو عنف فاجر ، ناشيء من عتو فى القوة والتباهى بها . واعتقدوا أن الغلو فى النجاح والقوة يثير غضب الآلهة أوعلى الأخص إلهة الانتقام Nemesis؛ إذ كأن الإنسان بنجاحه المتواصل وبمباهاته بقوته يتحدى الآلهة ، ويحاول أن يرتفع بنفسه إلى مصافهم ، ولذلك يوقعون عليه العقاب الشديد ليوقفوه عند حده ، ويلزموه دائرته الإنسانية الضعيفة بالنسبة لهم .

إن الشعور بالـ Hubris ومقاساة الإنسان منه ، امتداد أيضا لعهد الطفولة ، الذى فيه يستند الطفل إلى والديه ويتخذ مثله منهما ، ويتكون نواة ضميره عن طريقهما . فالطفل إن تحدى والديه وقواهما . وعظمتهما بالنسبة له ، وحاول أن يستقل عنهما فى حياته ، ويقف عن الاستناد إليهما ، لشعوره بأنه قوى مثلهما ، قاسى بسبب ذلك كثيراً . وعلى هذا النمط يعاقب الضمير الذات ، إن هى حاولت أن تتحداه ، وتستشعر فى نفسها عظمة تتباهى بها ، وتحاول أن تتخلص منه بسببها . وكأن هذا التباهى ذنب عظيم لا بد له من عقاب أو كفارة . وعلى هذا النمط أيضا يخشى الإنسان أن يقاسى شراً إن هو تحدى الله ، الذى يشعر به أكبر من والديه ، وأكبر من أية قوة أخرى فى الوجود . والذى يحس فى قرارة نفسه أنه قادر على كل شيء ؛ وأنه السند الأكبر للإنسان فى الحياة . فإن تعاظم الإنسان وتباهى بنجاح متواصل ، وتفاخر بقوة فائقة ، فانه يبدأ يشعر بالقلق والخوف أن يلقى جزاء ذلك ، عقابا على ذنبه ، الذى يستشعره من ذلك النجاح المتواصل ، إذ كأنه بذلك يتحدى الله ، ويأنس فى نفسه القدرة على أن يسير فى دروب الحياة مستقلا عنه ، مستغنياً عن معونته ، بل ومنافسا له فى عظمته .

ولذلك نجد فى الأديان المختلفة ما يشعر الإنسان على الدوام بأنه ضعيف

أمام الله ، وأن مشيئته دون مشيئة هذا السند العظيم[١] .

ففى المسيحية مثلا نجد فى الإصحاح السادس من إنجيل متى « أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك فى الأرض . خبزنا كفافنا أعطنا اليوم » .

وفى الإسلام . . . نجد فى القرآن آيات كثيرة بهذا المعنى مثل : « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » . ومثل : « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » .

ويتمثل التجبر فى القوة عند الإنسان وما يلقاه من عقاب وألم بسبب ذلك ، فى المثل الذى ضربه القرآن فى سورة الكهف : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه، قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا . لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا ، أو يصبح

(١) يتبين لنا من هذا كيف أنه من السهل أن نثبت وجود الله أو ندلل بضرورة شعور المرء بوجود خالق عظيم تدليلا سيكولوجيا . ويمكن أن نقول إن أغلب الذين ينكرون الله يشعرون فى بعض الأحيان بخوف وقلق عام لايدرون مصدره خصوصا إذا حلت بهم نكبة . وكأن لديهم شعورا دفينا بوجود خالق عظيم ، وكأن النكبة عقاب لهم على تنكرهم له وإنكارهم إياه .

ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا . وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ماأنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ». [١]

لقد عذب اليهود المسيح ، لأنهم اعتقدوا ان لديه Hubris أو جبروتا يتحدى به الله كما نستبين ذلك من محاكمته الموصوفة فى إنجيل متى الإصحاح السادس والعشرون :

« فأجاب رئيس الكهنة وقال أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله قال له يسوع أنت قلت وأيضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة وآتيـــا على سحاب السماء فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه قائلا قد جدّف ، ما حاجتنا بعد إلى شهود . ها قد سمعتم تجديفه ماذا ترون . فأجابوا وقالوا إنه مستوجب الموت » .

بل لقد أكد القرآن فى كثير من آياته على أن محمداً بشر وعبد ، وأن بينه وبين الخالق فرقا كبيراً وأن قواه محدودة جداً بالنسبة للخالق ، حتى لنجد لوما على درجات مختلفة موجها إليه من الله .

مثلا « قل إنما أنا بشر مثلكم » ، « إنما أنت منذر » ، « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » . ونجد اللوم فى « عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى » .

---

(١) يعنى هذا المثل أن رجلا آتاه الله من نعيم الدنيا الشىء الكثير كما هو مصور فى وصف جنتيه . . ثم ظلم نفسه عندما ظن أن نعيمه وعزه باق لن يبيد . إذ كأنه بذلك صور نفسه إلها قادرا على الاحتفاظ بهذا النعيم . وكأنه بذلك ارتكب خطيئة الاشراك . ولقد نال عقابه على ذلك فخربت جنته وزال عزه ونعيمه . ولو أنه اعترف بضعفه أمام الله ولم يظلم نفسه فيراها قديرة عظيمة تكاد تصل إلى مستوى الله فى قدرتها وعظمتها ، ولو أنه ذكر أن نعيمه هذا هو ما شاءه الله ، وأن عظمته وقوته إنما أتيا من عند الله لاستمر نعيمه ولم تهن قوته .

ثم « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه »
ثم أيضا « يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . إلى
ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها » ثم «وإن كادوا ليفتنونك عن
الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك
لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا . إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات
ثم لا تجد لك علينا نصيراً » .

ولقد سمى التحليل النفسى هذا الخوف المتأصل فى أعماق الإنسان من
غرور النجاح المتواصل . أو غرور الجبروت الواسع ، والعقابَ المتصل به
باسم مركب بوليكراتيس Polycrates Complex .

وبوليكراتيس اسم ملك ساموس فى بلاد الإغريق حكم من ٥٣٥ — ٥١٥
ق . م . ولاقى نجاحا متصلا فى غزواته ومشروعاته ، وتحالف مع ملك مصر
أحمس الثانى ضد قمبيز ملك الفرس . وقد أثار نجاحه المتواصل الخوف لديه
من أن تنتقم الآلهة منه ، ولتجنب هذا الانتقام Nemesism ، حاول استرضاء
الآلهة بأن قدم خاتمه الثمين قربانا وقذف به فى البحر . وابتلع الخاتم سمكة
كبيرة غريبة صادها صياد ، وباعها للملك . وقُدمت السمكة طعاما على مائدة
الملك فى حفل كان به فرعون مصر . فلما فتحها وجد لدهشته ودهشة الجميع
خاتمه بها . ففزع وفزع الحاضرون ، إذ اعتبروا ذلك دليلا على أن الآلهة لم
تقبل القربان ، وعلى أنهم مصممون على الانتقام منه . وقد هرول فرعون
مصر إلى بلاده ، وترك الملك المحكوم عليه إلى قضائه المحتوم المشئوم . وفعلا
كانت نهاية الملك أن صلب على يد الفرس فى سنة ٥١٥ ق . م .

ومن مظاهر مركب بوليكراتيس ، أن يثمل الإنسان بالنجاح المتواصل

به ويغتر ويركب رأسه وقد يشعر فى أعماق نفسه بشىء من التوتر ، وخوف لاشعورى من مصيبة فادحة لاحقة ، ولكنه يتمادى فى التفاخر والغرور ، حتى يقع ، ويلقى جزاء غروره ، أو يوقع أهله وقومه فى مصائب وفوضى فظيعة .

ونجد التاريخ مليئا بأمثال ذلك . وأظهرهم يوليوس قيصر ونابليون وهتلر.

إن كل فرد منا لديه هذا المركب إلى حد ما . ويظهر بشكل واضح شاذ فى أربعة أصناف من الناس .

١ — أولئك الذين يرضون حاجتهم للعقاب على شكل مصيبة تحل بهم ، أو معاملة قاسية يعاملون بها من محيطهم المادى أو الاجتماعى ، دون أن يكونوا قد ارتكبوا ذنبا أو جرما يستحق ذلك إلا تبعا لمستوياتهم العقلية . وكلما أزيلت صعوبة من طريقهم ، أو رفعت مصيبة عنهم . بحثوا عن بديل لها . فإذا لم يصادفوا مصاعب ، ولم تحل بهم مصائب ، أصبحوا عصابيين .

إن أغلب العصاب أو المرض النفسى يحدث نتيجة لصراع عقلى بين شهوات الذات السفلى التى لا يمكن أن يوافق الضمير على أن تحققها الذات ، وشهوات الذات نفسها ورغباتها المنافية للمثل الموجودة فى الضمير ، وبين الضمير نفسه ، فيحدث العصاب كأنه عقاب من الضمير يوقع على الذات . وقد يكون العصاب على أشكال مختلفة ، وقد يتولد عنه متاعب بل وأمراض جسمية .

أما فى الحالة التى نحن بصددها ، فإن العقاب بدلا من أن يأتى من الضمير ، يوقع من قبل العالم الخارجى على شكل صعوبات خارجية مثل فقر ، أو

اشتغال بمهنة متعبة غير مربحة ، أو مرض أو وقوع فى زواج غير موفق . فإذا امتنعت هذه الصعوبات أو زالت ، لجأ الضمير نفسه إلى أن يقف موقف المعاقب بأن يزيد من قوة كبته بقسوة لتلك الرغبات والشهوات المنافية له . فيؤدى ذلك إلى أمراض العصاب النفسى .

٢ — إذا كانت المصاعب الخارجية ترضى الحاجة للعقاب عند الفرد ، فليس من الغريب إذن أن نجد بعض أشخاص يخلقون بأنفسهم هذه المصاعب بشكل لاشعورى .

فهم يوقعون أنفسهم فى متاعب ، كان من الممكن لهم أن يتجنبوها ، ولكن قوة لاشعورية تدفعهم إلى التورط فيها . فهم يقبلون على صفقة خاسرة ، مع أنهم يدركون بتفكيرهم أنها خاسرة ؛ ويعملون فى مهن لاتوافق ميولهم ، وهم يعلمون ذلك ؛ ويختارون لأنفسهم حياة زوجية لاتتفق مع مبادئهم وتقاليدهم ، وهم متيقنون من هذا ومن أنها ستجلب لهم الشقاء ؛ ويعرضون أنفسهم لأنواع من الطعام والشراب الذى يضر بصحتهم ، وهم على علم بذلك ، وهكذا .

وإذا سارت الأمور فى حياتهم سيرا موفقا ، فإنهم سرعان ما يخلقون متاعب ومشكلات فظيعة . فنى منازلهم ، يتسببون فى شجار ومنازعات بينهم وبين ذويهم لأتفه الأسباب . فإن لم يجدوا سببا حاضرا ، رجعوا إلى الماضى لينبشوا منه ويثيروا عن طريقه أسبابا لمنازعات فضت من قديم ، وطويت صفحاتها من قبل ، وهكذا .

وهؤلاء للأسف ، لايقتصر أمرمتاعبهم على أنفسهم ، بل إنهم يكونون سببا لشقاء الأبرياء من أزواج أو أصدقاء أو مرؤوسين .

٣ — وقد تحقق الحاجة للعقاب على الشكل المعروف بالهستيريا التحولية

أو القلق الهستيرى Anxiety Hysteria أو Conversion Hysteria . إذ يشعر الفرد بمخاوف وهموم عامة لا يدرك مصدرها ومنتهاها . وتملؤه كآبة فظيعة لا يشفى منها إلا إذا أصيب بمرض جسمى . فالكآبة فى هذه الحالة عرض للحاجة إلى العقاب ، لا تزول إلا إذا نزل العقاب ، وتألم الإنسان . فإذا زال الألم رجعت الكآبة والهموم والمخاوف العامة مرة أخرى ، وهكذا .

والمثل فى ذلك مثل رجل موهوب كان يقاسى كآبة فظيعة ، لا تزول إلا بعد عطلته السنوية ، ولأمد محدود . وذلك لأنه فى كل عطلة كان يجرى جراحة فى ناحية من نواحى جسمه ، فى ساقه أو أذنه أو أنفه ، أو بطنه . وكان لا يقبل إلا أن يخدر تخديراً موضعياً فقط ، ويرقب باهتمام إجراء الجراحة فيه[1] .

نجد هنا أن المرض العقلى يزول مؤقتا بالجراحة أو بالآلام الجسمى ، وكأن الجراحة عقاب يخلصه من شعور دفين بالذنب يسبب له تلك الكآبة والمخاوف العامة ، فإذا ما زال الألم الجسمى ، عاودته الكآبة ثانية .

وقد استغل تبادل المرض العقلى والجسمى فى العلاج الحديث لبعض الأمراض العقلية والعصبية . والمثل فى ذلك استعمال الصدمات الكهربية والأنسولين والكارديازول والتريازول Cardiazol, Triazol فى علاج المرض العقلى المعروف بالشيزوفرينيا Schizophrenia . ولكن هذا العلاج إن أفاد ، فهو علاج وقتى فقط ، لأن مثل هذه الأمراض يحتاج شفاؤها إلى تحليل نفسى ، يعالج به الصراع العقلى المسبب لها ، لا إلى علاج العرض ، وترك الداء الأصيل الدفين كما هو .

---

(١) من كتاب Man, Morals & Society. by J. C. Flügel

٤ — وقد تتحقق الحاجة للعقاب على شكل آخر، يختلف عما ذكرناه في النقطة السابقة. فهنا تمتزج عناصر العقاب مع تحقيق الأعراض العصابية، ويكون الامتزاج قويا في حالة الهستيريا. ويكون العرض العصابي بمثابة إرضاء الحاجة للعقاب، وفي الوقت نفسه بمثابة حل موفق بين الرغبات المكبوتة والقوى الكابتة في الضمير. وأبسط مثل لذلك احمرار الوجه. فهو عقاب لأنه علامة شعور بخجل أو خزي، وهو أيضا يرضى الميل المكبوت لعرض الجسم وإظهاره « exhibitionism » إذ يستلفت احمرار الوجه نظر الناس للشخص. فبعض الناس، منذ طفولتهم، يمتصون فيما يمتصون من والديهم النواهي ضد تعريض الجسم للأنظار، وخصوصاً بعض أجزائه. وهذه النواهي تكون شديدة لدى البنات أكثر من البنين. فالميل لتعريض الجسم للأنظار، وعدم مضايقة الجسم بما يكدس عليه من ملابس، ميل طفلي يكبته الوالدان، بدليل السرور الذي يبدو على الطفل الصغير وهو يذهب ويجيء عريانا — وتألمه من اللباس الذي يوضع عليه ومحاولته خلعه. ويصبح النهي عن هذا الميل جزءاً من الضمير يحرمه على الذات. فإذا نظر إنسان غريب لشخص قد كبت هذا الميل فيه كبتا شديدا، أحمر الوجه، أو اضطرب الإنسان في حركاته. وهذا نوع من عقاب الضمير للذات واحتجاجه عليها لكونها تحاول تحقيق ذلك الميل المكبوت. وفي الوقت نفسه، فإن احمرار الوجه أو اضطراب الحركات يستلفت الأنظار إلى وجه الإنسان أو جسمه بوجه عام. وبذلك يجد الميل المكبوت نوعا من التحقيق على هذه الصورة.

والمثل في ذلك أيضا خوف السقوط أو الوقوع الذي يمكن أن نعده تهديداً بعقاب على شكل مصيبة جسمية تحدث للإنسان. وفي الوقت نفسه، فهو نوع

من إرضاء النزعات المكبوتة لدى الشخص فى أن يذنب ضد الضمير ويجرم .
فالخوف من السقوط أو ما يشابهه ، مثل الدوار الذى يصيب بعض الناس كثيراً ، دون أن يكون هناك سبب عضوى له ، قد يكون خوفا من السقوط الأدبى أو الاجتماعى . مثل الرجل الذى كان دائما يمتلىء خوفا من السقوط ، عند ما يسير فى الشوارع . ويصل هذا الخوف أشده ، إذا سار فى شارع ملىء بالملاهى ، ويقل إذا سار مع زوجته ، أو مع أصدقاء محترمين ولم يكن يدرك طبعا أصل خوفه هذا . وقد تبين أنه خوف من السقوط فى الرذائل وارتكاب الآثام ، أو من تحقيق الدوافع المنافية للأخلاق ، المكبوتة عنده كبتا شديدا .(١)

من كل ما سبق نتبين أولا — أن كلا منا لا يستطيع أن يصل إلى مستوى مثله العليا أو ذاته المثلى ؛ وأنه بذلك لا يستطيع أن يرضى ضميره فى كل تصرفاته وسلوكه وأفكاره . فيشعر بسبب ذلك بالسخط والذنب ؛ وأن هذا الذنب يسبب حالة من التوتر فى داخل نفسه لا يزيلها إلا العقاب الذى يرضى الضمير ، ويجعله مرة أخرى فى توافق مع الذات .

أى أن كل انسان منا لديه حاجة للعقاب .

وثانيا — أن إرضاء هذه الحاجة للعقاب يكون على أشكال مختلفة ، منها العقاب والتألم مباشرة ؛ أو التعويض عن الذنب والزلة ؛ أو الاعتراف مباشرة بالذنب ، أو الاعتراف بطريق غير مباشر به ، بأن يعمل الإنسان دون شعور منه على أن يدل على ذنبه وإجرامه بدلالة من الدلالات ؛ ومنها كبت الشعور بالذنب مرة ومرات ، حتى يصبح ارتكاب الذنب بعد ذلك أمراً عادياً لا يشعر

---

(١) من كتاب Man, Morals & Society by J. Flügel

المجرم بجرمه ؛ ومنها تبرير الذنب بشتى المبررات ، وكأن الإنسان بذلك يتوسل إلى ضميره ، ويستعطفه حتى يرفع غضبه عنه ؛ ومنها إسقاط الذنب أو الجرم على ضحية من الضحايا قد تلقى جزاء ذنوب الغير ، وتقاسى عقاب جرائمهم ، مقابل أن يتخلص الإنسان المذنب مما اقترف .

ومن هذا يتضح لنا أن الإنسان الكامل ، الذى تصل ذاته إلى مستوى ذاته المثلى فى الحياة ، والذى يستطيع أن يسلك دائما السلوك الذى يرضى ضميره ، إنسان لا وجود له .

حقا إن الإنسان محمل بالذنوب . . وإنه لكى يكفر عن ذنوبه ويتخلص منها ، كثيراً مايتلمس العقاب ، ويوقع نفسه فى متاعب كثيرة ، ويورد نفسه موارد المقاساة . وقد يلصق بالأبرياء ذنوبه ، فيجر عليهم الويلات والعذاب ، ثم ينام هادئا ملء جفونه ، وكأنه لم يفعل شيئا .

إن الآثام التى يقترفها الإنسان لتختلف كمّا ونوعا ؛ تختلف فى كثرتها وقلتها ، وتتباين من مساوىء بسيطة إلى ذنوب كبيرة ، إلى جرائم فظيعة مروعة . وهذه الدرجات من الإثم والجريمة تتوقف إلى حد كبير على نوع نواة الضمير الذى تكون فى الإنسان كما وضحنا من قبل ، ثم على الظروف المختلفة التى تحيط به ، وعلى من يختلط بهم ، وعلى الأنظمة التى تتحكم فى مجتمعه ، وعلى ذوى السلطان والنفوذ فى حياته ، وعلى نوع الحياة التى يضطر لأن يعيشها ، وعلى غير ذلك من عوامل أخرى يتمثلها المرء . فإما أن تسند القوى التى تكون منها الضمير ، أو تعارضها وتعمل على إضعافها وانحلالها ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى الباب الأخير من الكتاب .

الجريمة والعقاب :

بقيت كلمة بسيطة عن معاملة المذنب أو المجرم من الأفراد والهيئات .

كيف تكون ؟ هل يعاقب ؟ وكيف يكون العقاب ؟

وقبل كل شيء يجب أن ننظر للمذنب أو المجرم من ناحيتين : مذنبا نحو أفراد ، ومذنبا نحو المجتمع . والمثل فى ذلك الرجل الذى يعتدى على آخر بسب أو إهانة أو ضرب . إنه يعد معتديا على فرد ، ومعتدياً على نظام المجتمع الذى يؤمن حياة الأفراد ، ويمنع الفوضى من أن تنتشر بينهم ، والذى من أجل ذلك يشرع الأنظمة القوانين ، التى يجب أن يسير الناس فى هداها ، وينصب حراسا وحكاما يعملون على أن يحترمها الناس ، ويعاقبون من يخدشها أو يكسرها .

فالمذنب فى كلتا الحالتين يشعر بذنبه . إن كان سوياً ، وتستثار لديه الحاجة للعقاب . وفى بعض الحالات ، نجد أنه إذا لم يعاقب المذنب أو المجرم ، فترضى فيه تلك الحاجة ، ويتخلص بذلك من ثقل ذنبه عليه ، فإن الشعور بالذنب الذى يظل كامنا فى نفسه ، على شكل توتر وضيق داخلى ، قد يجره إلى الإثم أو الجريمة مرة ثانية ، حتى يُكتشف أو يعترف ، ويعاقَب على الجريمتين. ولذلك لا نعجب حين نجد مجرما يعترف دون مبرر ظاهر بجرائم سابقة ، ويطلب من القضاء أن يضمها لحسابه الإجرامى . وإذا لم يعاقب فى المرة الثانية ، فقد يستمر فى إجرامه ، ويقل بسبب ذلك الشعور بالذنب ، نتيجة لتغلب الغرائز الهمجية فى الذات السفلى - تشد أزرها الرغبات المكبوتة فى الذات ، المنافية للأخلاق والمجتمع — على ضمير الإنسان . ولقد سئل بعض المجرمين العتيدين فى الإجرام ، عن سبب استمرارهم فيه ، فقالوا إنه يرجع إلى أنهم لم يعاقبوا على أول جرم اقترفوه . . والمذنبون والمجرمون فى هذه الحالات يكونون غالبا أصحاب ضمائر ضعيفة غير متماسكة ، أو يكونون مكبوتين كبتا فظيعا .

وفى بعض الحالات الأخرى ، قد يزيد إهمال المذنب أو المجرم ، من شعوره بالذنب ، فيقاسى ألماً داخلياً فظيعاً ، وخزياً وعاراً مستمراً ، أمض فى ألمه وأوجع فى وخزه من العقاب الذى يوقع عليه من الخارج . ويضطر لأن يعاقب ذاته بإذلالها بالتوسل لمن أذنب ضده ، أن يشمله بالمغفرة. وفى مثل هذه الحالات ، يكون المذنب أو المجرم ذا ضمير قوى متماسك فى مثله فى الغالب ، وتكون رغباته المكبوتة فى ذاته قليلة ، لأن طاقات الغرائز الهمجية قد حولت من أول الحياة إلى نواح اجتماعية صالحة مفيدة .

وقد دعت هذه الحالات الأخيرة بعض الفلاسفة وبعض علماء الاجتماع بالمناداة بالغاء العقوبات فمثلا نجد برنارد شو يقول :

« إن الحياة لن تزول وتنتهى ، إذا لم تقابل الجريمة بالعقاب ، كما أنها لن تزول لأننا لا نواجه المرض بالعقوبة . إن العقاب خطأ وخطيئة » .

إن فى قول برناردشو ومن يرى رأيه مغالطة كبيرة . فهم يكادون يعترفون بأن الجريمة مرض ، وهى فى الواقع مرض نفسى . والأمراض النفسية لا يكون ضررها مقصوراً على من ابتلى بها فقط . ولكنها تجلب الشقاء للغير أيضا . . إنها إذن تشبه الأمراض المعدية . والمجتمع لا يسمح بالمبتلين بها أن يتنقلوا فى أوساطه فينشروا العدوى والعلل والسقم بينهم . . إنه يجمعهم فى معزل خاص . ويضع عليهم حراساً شداداً يمنعونهم من الخروج منه حتى يعالجهم ، ويطمئن بذلك على سلامة الأفراد الذين سوف يخالطونهم .

وكذلك الأمر فى الجريمة ومقترفها . . فقد وجد المجتمع من قديم ، أن يمنع شر المجرم عن أفراده . لذلك سن له قانون العقوبات ، وجعله بمثابة علاج للجريمة ، لا بد أن يتجرع المجرم منه ما يمكن أن يسد حاجته للعقاب

تبعا لجرمه ، على ذلك يشفيه ، ويرجعه إلى حظيرة المجتمع ، سليما معافى ، خالصا من دوافعه الإجرامية .

ثم إن المجتمع أراد من العقوبة شيئا آخر ، وهو أن يجعل من المجرم أمثولة لغيره ممن قد يحملون ضمائر خائرة ، فيعملون خوفا من غضب المجتمع وسخطه عليهم ، وعقابه لهم ، على أن يشدوا أزر تلك الضمائر ، وينفخوا فى بصيص النور المشتعل بها ، كيما يزيد سناؤه ، فيبدد بذلك ظلمات الرغبات الهمجية المتأججة فى النفس ، المستعدة للوثوب ، وإعمال مخالبها فى النظم الاجتماعية والأخلاقية التى يعيش الناس — ويجب أن يعيشوا — فى ظلها ، حتى يكونوا آمنين فى نفوسهم ، مطمئنين أحدهم للآخر .

قد يكون الأفضل طبعا ، أن نعالج المجرم علاجا نفسيا ، وهو فى معزله ، أو فى سجنه ، حتى نضمن شفاءه من دوافعه العدوانية الأثيمة . ولكن أنى لنا بالمحللين النفسيين الذين يمكنهم أن يعالجوا المجرمين والآثمين ، وما أكثرهم ؟ وأنى لنا بالوقت الذى يستلزمه العلاج ، وهو طويل مضن ؟ إن أكبر ما نستطيع القيام به ، هو :

١ — الوقاية من عوامل الإجرام ، وذلك بالاهتمام بتربية النشء فى سنواته الأولى ، عند ما يكون فى أحضان والديه وخصوصا أمه .

٢ — معالجة المشكلات النفسية عند ملاحظتنا إياها فى الأطفال أو الأحداث الجانحين ، إذ من السهل أن نقوم بهذا العلاج . بينما لو أهملنا هذه المشكلات ، فقد تتفاقم مع نمو الحدث وتؤدى به إلى الإجرام .

من أجل ذلك ، كان الاهتمام بمحاكم الأحداث ، ودراسة حالة الحدث الجانح ، واعتباره مريضا بحاجة إلى علاج لا عقاب .

٣ — عمل الوالدين على إيجاد انسجام بينهما من أجل تنشئة أطفالهما .

إن افتراق الزوجين ، وانفصالهما روحيا فى المنزل ، أو روحيا وماديا بالطلاق ، كل هذا يسبب مشكلات فظيعة للأطفال ، قد تؤدى إلى إجرامهم كبارا . لقد وجدت عند ما كنت أقوم ببحث على الأحداث فى الإصلاحيات بمصر ، أن أكثر من ٩٠ ٪ منهم جمحوا وانغمسوا فى الإجرام نتيجة لانفصال الوالدين أو تنابذهما ، ونتيجة لاضطرار الطفل لمعاشرة زوجة أب أو زوج أم .

وقد يكون من أهم طرق الوقاية من شر الاختلاف والتنابذ والانفصال ، أن يعنى كل من الفتى والفتاة ، وكذلك أهلوهم ، بأن يكون الزواج قائما على أساس من تقارب الأمزجة والطباع والمثل ، لا على أساس مادى ، أو مظهرى ، أو عائلى ، أو غير ذلك مما يحطم الحياة الزوجية تحطيما تاما فى بعض الأحيان ، أو تحطيما روحيا فى بعض الأحيان الأخرى . ويقاسى الأطفال نفسيا من ذلك شر المقاساة ، كما يقاسى المجتمع منهم بعد أن يكبروا .

٤ — مراجعة قانون العقوبات : ومحاولة الحاكم دراسة نفسية المجرم الذى يقف أمامه ، وكذلك تاريخه ، ووازع الجريمة ، حتى يحكم بالعقاب المناسب الذى من شأنه أن يكون أداة إصلاح . ففى جرائم متماثلة ، قد يكون أصلح لمجرم أن يوضع تحت المراقبة مدة من الزمن ، بدلا من عقابه بالسجن ؛ بينما يكون أصلح لمجرم آخر اقترف الجريمة نفسها أن توقع عليه عقوبة من العقوبات .

ولذلك يهتم كثيرا الآن بأن يدرس علم النفس الجنائى دراسة واسعة فى الكليات التى تعد رجال القضاء بل ورجال الشرطة أيضا .

بل يفكرون فى بعض البلاد بأن يكون بين أعضاء المحاكم التى تحاكم المجرمين رجل مختص فى التحليل النفسى .

إن العقوبة التى لا تتناسب مع الجرم ، قد تحطم فى المجرم فكرة العدالة، فيخرج إلى المجتمع بعد توقيع العقوبة عليه حانقا ، مليئا بروح العدوان ، الذى يدفعه للإجرام ثانية .

كما أن العقوبة الطفيفة قد لا تسد حاجة المجرم للعقاب ، فيبقى جزء من الشعور بالذنب فى نفسه . وقد يدفعه هذا إلى الجريمة ، كما سبق أن وضحنا من قبل ، حتى ينال العقاب الذى يخلصه من ذنبه القديم وذنبه الجديد .

ثم إن السجون نفسها بحاجة إلى إصلاح ، ومعاملة المجرمين فيها بحاجة إلى أن تقوم على أساس علمى نفسى . ولا يتسع المقام للخوض فى ذلك كله فى بحث مثل هذا البحث .

الباب الرابع

هزيمة الضمير وانحلاله

مقاومة الذات السفلى للضمير :

رأينا من قبل كيف أن الضمير يتحكم فى النفس الغريزية الهمجية ، تلك التى سميناها بالذات السفلى . وأشرنا إشارات عابرة إلى كيف أن غرائز هذه الذات ودوافعها، تستطيع فى بعض الأحيان أن تنجح فى صراعها مع الضمير، وتتغلب عليه ، وتسوق المرء الى الجموح فى المجتمع .

وسوف نبحث الآن فى الطرائق التى تتمكن بها الذات السفلى من النجاح فى صراعها مع الضمير، وتبدأ تتحكم فيه ، وبذلك تدفع الإنسان لأن يسلك سلوكا شائنا بالرغم من حوزه قوة أخلاقية عظيمة فى نفسه .

ويبدو طبعا أننا بهذا نعالج موضوعا عظيم السعة ، شديد التعقيد ، وقد نضطر لأن نعيد شيئا مما سبق ذكره فى الأبواب السابقة ، لكى نوضح تماما كيف أن الضمير فى بعض الأحيان يقع فريسة للهزيمة أمام دوافع الذات السفلى .

إن الذات السفلى ، مليئة بدوافع ، إذا لم تجد ما يحكمها ويضبطها ، فإنها تجر الإنسان إلى أن يقوم بسلوك وأفعال غير اجتماعية ، ومنافية لما تواضع عليه المجتمع من مثل وأخلاق وتقاليد . وما علينا لكى نفهم ذلك ، سوى أن نلاحظ طفلا فى الثانية أو الثالثة أو الرابعة من عمره . إنه لو ترك

ونفسه ، دون رقابة أو ضبط ، ليقلب المنزل رأسا على عقب . بل ربما ينتهى به الأمر لأن يدمر نفسه ، أو على الأقل لأن يتسبب فى أضرار كثيرة تحل به . إننا لانستطيع ، لكى نؤمنه ضد دوافع نفسه الهمجية ، أن نتركه وحيدا إلا بالقدر الذى نستشعر منه أن أوامر الكبار ونواهيهم قد لقيت صدى فى داخل نفسه ، أى قد تمثلها الطفل ، فأصبحت قوى داخلية رادعة له عن الإضرار بنفسه أو بغيره . أى أصبحت بمثابة نواة لضميره أو ذاته العليا التى سوف تنمو وتترعرع فيما بعد .

إن السلوك الصالح ، أو السلوك الإجرامى ، ليتوقف تبعا لذلك على النسبة بين شدة الدوافع الهمجية والمنافية للمجتمع ، والقوى الضابطة المتحكمة فى هذه الدوافع من الخارج أو من داخل النفس . إذ يتوقف على الصلة بين شدة هذه الدوافع ، وتلك القوى سلوك الذات أو النفس ، أو صورة شخصية المرء فى الحياة .

ولذلك يجب أن نأخذ بعين الاعتبار ، عندما ندرس الظروف التى تعمل على إضعاف الضمير ، ليس فقط العوامل التى تنخر فيه ، وتساعد على تفككه ، بل يجب أيضا أن ندرس العوامل التى تساعد على إيجاد شدة فى دوافع الذات السفلى أو النفس الهمجية ، إن وجدت مثل تلك العوامل . ويجب أن نتذكر ما سبق أن أشرنا إليه من قبل ، وهو أن من مظاهر ضعف الضمير ، كثرة الآثام ، والجرائم التى تصدر من المرء ، والتى معناها طبعا جموح الإنسان وكسره القواعد والمستويات الخلقية ، وخروجه على النظم الاجتماعية والقوانين والشرائع التى وضعت لكى يعيش الإنسان فى ظلها ، ليضمن لنفسه حياة فردية آمنة ، وسط مجتمع آمن متناسق .

شدة دوافع الذات السفلى :

فمن حيث شدة الدوافع فى النفس الهمجية ، نجد أن علماء النفس المعتدلين ، وعلى رأسهم مكدوجل ، يشيرون إلى أن الجموح والإثم والإجرام ، ليست فى الحقيقة سوى مظاهر طبيعية للدوافع الغريزية التى لا تجد قوى كافية تضبطها وتتحكم فيها . فيقول العلامة الانكليزى س . برت C. Burt فى كتابه « الطفل الجامح » The Delinquent Child إن أنواع الجموح المختلفة من سرقة أو عدوان ، أو خطايا جنسية إلى غير ذلك ، بل والتشرد أيضا ليست سوى تعبيرات ومظاهر لغرائز معينة بالذات ، بالمعنى الذى يتكلم فى ضوئه مكدوجل عنها . وعلاوة على ذلك ، فإنه يقول إن هناك عاملا عاما لشدة الغرائز أو قوة نواحيها الانفعالية . فالغرائز من مقاتلة ، وجنسية ، وحب سيطرة ، إلى غير ذلك ، بالرغم من اختلافها فى النوع ، فإنها محملة جميعا بطاقة أو قوة أو فعالية ، تختلف باختلاف الأفراد . وبما أن الغرائز قوى فطرية غير مكتسبة ، فإن الطاقة أو القوة أو الفعالية التى تشحن بها ، هى أيضا فطرية غير مكتسبة . ومعنى ذلك أن الفرد الذى يرث هذه الطاقة الغريزية بدرجة عظيمة — إذا تساوت الظروف الأخرى — يكون معرضاً للجموح أكثر من ذلك الذى يرثها بدرجة أقل . إنه يكون بحاجة إلى مقدار من الضبط — داخليا كان أم خارجيا — أكبر من مقدار الضبط الذى يكون الآخر بحاجة اليه ، إذا أردنا ألا تتجه هذه الغرائز به اتجاها غير اجتماعى وغير أخلاقى .

ويرى برت Burt أيضاً ، أن نوع الغريزة نفسها له أهمية كبرى فى تعرض الإنسان للشذوذ والجموح والإجرام . ويقسم الغرائز من حيث نوعها إلى قسمين : قسم إيجابى ، مثل المقاتلة ، والغريزة الاجتماعية ، والغريزة الجنسية

وغريزة السيطرة ، وقسم سلبي مثل الخوف ، والنفور ، والخنوع .(١)

فالأشخاص الذين لديهم بالفطرة ، غرائز إيجابية قوية ، يكونون عرضة للجموح والإجرام ، أكثر من أولئك الذين يرثون غرائز إيجابية ضعيفة ، طبعاً إذا تساوت الظروف الأخرى ، مثل المحيط وتأثيره ، ومعاملة الوالدين ونوع المخالطين للشخص إلى غير ذلك .

أما أولئك الذين يرثون الغرائز السلبية بشكل قوى ، فإنهم يكونون عرضة للأمراض النفسية ، أو يكونون عرضه للعصاب النفسى ، أكثر من أولئك الذين يرثون تلك الغرائز بدرجة ضعيفة .

والتحليل النفسى يتفق فى هذه الآراء ، كما يتفق فى آراء أخرى سبق أن ذكرناها من قبل ، مع هذه المدارس الأرثوذكسية . فهو يعترف بأهمية هذه الغرائز وأهمية طاقاتهاوقواها وفعالياتهاالفطرية . ولكنه درس المؤثرات البيئية ربما أكثر من غيره ، واهتم أيضا أكثر من غيره من المدارس بما لهذه المؤثرات البيئية من قيمة كبرى فى تعديل الغرائز الأصلية ، وتوجيهها وجهات خاصة .

أثر التدليل فى تكوين الضمير

وأول وأبسط هذه المؤثرات المحيطية « التدليل » ، أو ما يمكن أن يعبر عنه بالتسامح الزائد الذى لا مبرر له ، مع الطفل ، والذى يتمخض عن السماح له بأن يعبر عن دوافعه الغريزية بأية طريقة توصله إلى أغراضه ، ولو كان ذلك على حساب الآخرين ، دون أن يتعرض فى قيامه بذلك لأى منع ،

---

(١) الغريزة الايجابية هى تلك التى يحققها المرء باتخاذ موقف إيجابى ازاء مثيرها . فغريزة المقاتلة تدفع الإنسان للقتال ؛ والاجتماعية تدفع للبحث عن غيره لكى يجتمع به ؛ والجنسية تدفعه للتقرب من الجنس الآخر ؛ والسيطرة تدفعه للكفاح والغلبة والتفوق .

أما الغريزة السلبية فهى التى يكون موقف الإنسان عند تحقيقها سلبيا إزاء مثيرها . فهو يحقق غريزة الخوف بالهرب ؛ والنفور بالابتعاد ؛ والاستكانة بالاستسلام والخضوع .

أو ردع ، أو عقاب يذكر . ومعنى ذلك ، أن مثـــل هذا الفرد ، يتعلم منذ طفولته أن الاثم والجريمة مفيدة ، لأنها توصله إلى أهدافه ، وأن ليس هناك من ضرورة تلجئه إلى أن يحسن ســـلوكه ويضبطه حتى يكون سلوكا اجتماعيا ، لأن فى ذلك تضحية من جانبه ببعض رغباته وأهدافه ، وقد تعود منذ حداثته أن يحقق رغباته وأهدافه كلها ، وأن يستشعر الرضا واللذة من ذلك مهما أدى تحقيقها إلى الإضرار بالآخرين . لقد تعود أن ينقاد لدوافعه البدائية أنى توجهه ، دون أن يجابه مانعا أو حاجزاً أو ضابطاً . وبذلك لا يتمثل فى نفسه أوامر أو نواهى تصبح قوى ضابطة داخلية . أى لا يتكون لديه ذات عليا أو ضمير يذكر . فيجمح صغيرا ، ويجرم كبيرا ، دون شعور تبعاً لذلك ، بحاجة إلى عقاب . بل إنه ليعجب من أى عقاب يوقع عليه ، ويعده ظلما وعدوانا ، يرد عليه بظلم وعدوان وإجرام .

وفى الحياة الواقعية ، يشك كثيراً فى إمكانية وجود مثل هذا الصنف من الإنسان . إذ فى الغالب نجد أن أكثر الوالدين تسامحا مع طفلهم ، مضطرون لصالحه وصالحهم ، أن يرسموا له بعض الحدود ، ويكبلوه ببعض القيود ، ويفرضوا عليه شيئا من الضوابط ، ولا يمنحوه تلك الحرية الطليقة المطلقة لتحقيق رغباته ودوافعه الأنانية . ولذلك يتكون فى مثل هذا الطفل ضمير إلى درجة ما ، ويصبح قادراً على استشعار الذنب إلى حد ما أيضا .

ولـكن ضمائر هؤلاء الأفراد لا تكون من القوة بحيث تضبط الدوافع الهمجية الثائرة فى ذواتهم السفلى ، وتكبح جماح رغباتهم الأنانية ، التى تزخر بها نفوسهم الواقعية .

ولذلك كثيراً ما ينهزم الضمير أمام تلك الدوافع والرغبات ، فيجمح هؤلاء الأفراد ويجرمون ، ويأثمون ويذنبون ؛ ويعجز العقاب فى صوره

المختلفة أن يكون ضابطا مانعا ، وقوة رادعة لهم . بل قد يزيد من استثارة دوافعهم العدوانية ، وينقلبون بسببه مجرمين قاسين فى إجرامهم ، آثمين مستهترين فى إثمهم .

إننا لنجد فى الحياة أمثلة من هذا النوع من الإنسان أو قريبة منه : فى الطفل الوحيد ينشأ بين أحضان والدين متسامحين ؛ أو فى الطفل الذكر بين عدة أخوات ؛ أو فى الطفل الأنثى بين عدة ذكور ؛ وفى هؤلاء خصوصا إن كانوا ضعافا فى ذكائهم ، أو ضعافا فى بنيتهم ، معرضين للأمراض الكثيرة التى تجعل والديهم أكثر تسامحا معهم ، مما لو كانوا أصحاء أشداء .

كما نجد أمثلة لهذا النوع أيضا ، فى الطفل ذى الأبوين المستهترين اللذين يطبقان عليه مستوياتهما الخلقية الوضيعة ، فيتركانه يحقق رغباته وشهواته ودوافعه ، دون تقيد بنظام اجتماعى ، أو مثل خلقية . إنه لا يلمس فيهما ضابطا متحكما ، ولا يرى فيهما زاجراً أو رادعاً ؛ وبذلك لا يتمثل منهما داخل ذاته ضميرا يذكر .

أثر القسوة والشدة فى تكوين الضمير :

وثمة مؤثر محيطى آخر ، يختلف الاختلاف كله عن التدليل أو التسامح المبالغ فيه . وهو العقاب المبالغ فيه ، والقسوة الطاغية التى لا مبرر لها . فبعض الأطفال يقاسون من والديهم غلظة وفظاظة ، ولا يستشعرون منهم حبا أو عطفاً يذكر . إنهم دائما ينتقدون تصرفاتهم ، ويحقرونهم ويعاقبونهم على أتفه الأسباب عقاباً صارماً . وبذلك يكون الطفل من هؤلاء فى حالة فقر مدقع للحب والعطف . لا يستشعر رضا على سلوك طيب ، ولا يلمس ثواباً إذا عمل تبعا لما يريده والداه ويتمثل الطفل فى ضميره ، الأبوين على هذه الصورة العابسة القاسية الفظة . وتصبح القوة الداخلية المتحكمة فيه متجهمة شديد التجهم ،

مكفهرة قبيحة الاكفهرار . وتشعر النفس الواقعية بيأس منها ، فتثور عليها ولا تلقى لها بالا ، ولاتعمل لها حسابا ؛ بل تلتمس اللذة فى أن ترضى النفس الهمجية . وتحقق دوافعها الأولية ورغباتها الخاصة الأنانية . ماذاتخسر بذلك التصرف ؟؟ إنها لاتتوقع جزاءًا ولاشكوراً من الضمير إن قامت بما يرضيه .. بل على العكس ، تراه جامداً دائما ، عابسادائما ، رافعاً يده للبطش بهادائماً . لقد كرهته وأبغضته ، وفقدت بهذه المعاملة الظالمة ، إحساسها بالعدالة الداخلية . فلتول ظهرها إليه ، ولتقبل على رغباتها الأنانية الخاصة ، وعلى لذات النفس البدائية ترتشف منها ما تشاء ، ولتدعه يضرب ماشاء له الضرب ، ويعاقب ما حلى له العقاب . وبذلك تنغمس الذات الواقعية فى الإثم ، وتهيم فى ضلالة الجرائم لا يردعها عقاب ، ولا يقفها عن غيها عذاب .

هنا أيضاً نشهد مصرع الضمير وهزيمته .

إننا نجد أمثلة هذا النوع من الأفراد فى الطفل ذى الوالدين القاسين ؛ أو فى الطفل المحروم من عطفهما حرماناً كبيراً ، لأنهما متلهيان عنه ؛ أو فى الطفل غير المرغوب فيه ، لأنه أنثى والوالدان يحبان الذكور ، أو لأنه ذكر وهما يحبان الأناث ، أو لأنه ابن زوج منهما ، وليس ابناً للآخر ، أو لأنه يتيم يرى فيه الوالد الذى يعاشره عبئاً ثقيلا ، يتمنى لو يرفع عنه . بل وقد يشعره كثيراً بما يحس به نحوه ، وهكذا .

ولهذا يجمح الطفل فتى ، ويجرم راشدا ، ويتغلغل فى الفساد ، ولاينفعه العقاب ، إلا أن يزيده كراهية وبغضا للمجتمع ونظمه ، ويلهب ثورته ، وينفخ فى سعير فورته .

إن مثل هذا الإنسان ليس بحاجة إلى عقاب يقفه عن غيه ، ولكنه

بحاجة إلى عطف وحب يتمثلهما ، من محيطه ، من المتنفذين فى مجتمعه ، حتى يدخل شىء من النور فى ذلك الضمير المعتم ، يمسح شيئاً من كآبته ، ويجعله قادراً على أن يبتسم ويرضى ويحب .

إن مثل هذا العلاج ليس بالأمر اليسير مع المجرمين أو الجامحين من هذا الصنف . بل إننا لنجد فى أول الأمر عندما نتسامح معهم ، ونشعرهم بشىء من العطف ، رد فعل فظيع على شكل سلوك زائد فى العنف منهم ، وجموح أشد خطراً من جموحهم السابق . إذ يرون فى تسامحنا معهم ، وعطفنا عليهم ضعفاً وخورا وهزيمة منا ولكن التسامح التدريجى ، والعطف المتسلسل ، وفوق ذلك ، الصبر والأناة — كل ذلك كفيل لأن يحول الجموح والعدوان إلى قوى خائرة تطأطىء الرأس أمامنا ، وإلى دموع سخينة تتهاطل من مآقى المجرم ، وإلى اعتراف صريح بأن ليس فى الحياة من يحبه ويعطف عليه ، وهو مفتقر إلى الحب والعطف ، وإلى من يقيه كراهيته للعالم ، وتخريبه فيه . فإذا وصلنا إلى هذه المرحلة ، يمكن أن نبدأ تربيته من جديد ، وذلك بأن نجازيه خيرا كلما تعاون معنا فى ضبط دوافعه ، ونعطيه عملا يقوم به ، ويرد له اعتبار المجتمع إياه؟ ويمحو شعوره بأنه منبوذ منه ، ويسد تلك الحاجة التى تكلمنا عنها فى الباب الثانى ، وهى حاجة المرء لأن يحتاج إليه .

إن الطرق الحديثة القائمة على التسامح والرأفة فى معالجة الجموح فى الحالات التى من هذا النوع ، قد أثبتت جدارتها ونجاحها ، بالرغم مما تسببه من العناء الكبير ، وما تتطلبه من المهارة والتبصر والصبر ، بالمقارنة مع الطرق التقليدية القديمة ، عديمة الجدوى فى الغالب ، القائمة على مجرد القسوة وزيادة الضبط .

أثر التذبذب فى معاملة الطفل

وثمة مؤثر محيطى آخر هو عدم ثبات المعاملة التى يعامل بها الطفل . فهو فى بعض الأحيان يعانى عقابا ظالما عنيفا من والديه ، وفى بعض الأحيان الأخرى يعامل باللين والتسامح الزائد والتدليل . وقد أشرنا إلى هذه المعاملة فى الباب الثانى ، وما ينتج عنها من تمثل الطفل فى ذاته العليا أو ضميره مثلين متناقضين ، يجعلانه يقف حيران فى الحياة ، لايدرى على أى نهج منهما يسير . ثم إذا به يضحى بهما معا ، وبضميره الذى تتكون نواته منهما ، قوة منقسمة متخاذلة خائرة ، لاتستحق أن تحترم أو يعمل لها حساب . ويتجه الطفل إلى رغباته الأنانية ، وإلى غرائزه البدائية ، أو تتجه الذات إلى رغباتها الخاصة وإلى دوافع الذات السفلى تحققها ، موليةظهرها للضمير ، الذىهزمهانقسامه، وصرعه تفرقه ، وخذله شقاقه . ويجمح الإنسان فىالحياة غير مكترث بالقوى الاجتماعية أو الخلقية ، لأن انطباعه عنها أنها قوة منقسمة ، غير متآلفة وغير منسجمة .

على أن هذا الصنف من الناس بالقدرالذى يجمحون به ويجرمون ، قد يسلكون أيضا سلوكا اجتماعيا طيبا . إنهم على قدر ما يعتدون على الغير ، قد ينصرونالضعيف ، ويردون عنه أى عدوان يقع عليه . وإنهم قد ينهبون ويسرقون ، وفى الوقت نفسه قد يساعدون الفقير ، ويعطفون على البائس . وكأنهم يسيرون فى الحياة على غير هدى ، لا يعرفون أين يتجهون ، ولاعلى أى أرض يثبتون أقدامهم .

والطفل الذى يلقى هذه المعاملة غير الثابتة أو المذبذبة ، يضطر لأن يلجأ إلى اختبار ذويه ، والقيام بشىء يشبه التجربة عليهم ، حتى يتبين أى نوع من المعاملة يعاملونه بها إزاء السلوك الذى قام به ، أو يرغب فى أن يقوم به .

هل يا ترى إذا سلك ذلك السلوك ، يفقد عطفهم وحبهم عليه ، أم يستبقيه ويظل مستمتعا به ؟ وقد يصبح هذا الاختبار لزوما متكرراً (Obsession) أو عادة متمكنة ، تؤدى به إلى ارتكاب أعمال عدوانيـة ، أو تحقيق رغبات غير اجتماعية ، ليستوثق أنه بالرغم من ذلك ، لايزال موضع حب ذويه . وقد تكون هذه الأعمال العدوانية ، أو تحقيق الرغبـات الأنانية أمرا خياليا يتخيل الطفل أنه قام بهـا فعلا . ومثل الأولى مثل الولد الذى كان يعتـدى على أمه باللكم ، ثم يطلب منها أن تقبله عددا من المرات ضعف عدد لـكمه إياها . ومثل آخر درسه فلوجل Flugel ، حالة شخص كان فى كل مساء يرجع إلى المنزل ، يبحث عن شىء أو أى سبب يثير تذمره ، ثم ينفجر لائمـا سابا شاتما . فإذا ثبت ذووه فى الاختبار ، وظلوا هادئين مسالمين عطوفين عليه ، هدأ ثائره ، وتحول إلى شخص مسالم عطوف[١] .

إن هذا التصرف من جانب الرجل ، كان نتيجة لشعور كبير بالذنب تجاه زوجته ، إذ لم يكن مخلصا لها . . وكأنه بكثرة تذمره وعدوانه كل يوم ، يريد أن يطمئن نفسه ، إلى أنها باقية على حبهـــا له مهما فعل . أى كأنه بشكل لا شعورى يؤمن نفسه بصفحها عنه ، وغفرانها آثامه .

ومثل الأعمال العدوانية الخيالية ، مثل الطفل الذى يذكره برت Burt فى كتابه « العقل الشاذ The Subnormal Mind » الذى كان يضايق أمه كثيرا وقت النوم بأسئلة كثيرة يوجهها لها ، عن ذنوب وخطايا يقول إنه لم يقترفها . ولـكنه يسألها « إذا كـنت قد ارتكبتها ، فإنك تصفحين عنى يا أماه أليس كذلك ؟ »

---

(١) من كتاب Man Marals & Society by J. C. Flugel

وكان الولد يرزح تحت عبء شعور كبير بالذنب ، ناتج عن أن ذاته كانت تزخر برغبات فظيعة غير أخلاقية عند النوم .

إن علاج الأفراد الذين من هذا النوع يتأتى بإصلاح التذبذب فى المعاملة من جانب المربين ، وذلك بأن يثبتوا على نهج واحد فى معاملة الطفل . وبأن يثيبوا الطفل بانتظام على سلوكه الطيب كلما سلكه ، وأن يشعروه فى نظام أيضا بسخطهم عليه ، بل وأن يوقعوا عقابهم عليه ، إذا لم يصل سلوكه إلى المستوى المطلوب ، مع مراعاة ما سبق أن ذكرنا من حيث أن الثواب أو العقاب يكون متناسبا مع سلوكه ، ومن حيث ألا ينظر للطفل كأنه فرد اكتمل نموه ، فينتظر منه أن يصل سلوكه إلى المستوى المطلوب من الراشد ، بل ينظر له طفلا ينمو ، وتترقى مثله بالتدريج .

أما ذلك الاختبار والتلمس والتحسس لاتجاهات ذويه والمتنفذين فيه ، بالقيام بأعمال عدوانية ضدهم ، أو مخالفة لمثلهم ، فيمكن معالجته بتفهم السبب أو الأسباب الحقيقية العميقة لمشاعر الذنب التى تؤدى إلى الاختبار ، ومعالجته منها حتى تمحى وتزول . أو بأخذ اتجاه صبور رحيم متسامح معه ، وإشعار الفرد بأننا ننظر الى اختباره كما لوكان لهوا صبيانيا . وبذلك تثبت المثل الطيبة الرجراجة فى ضميره ، ويبدأ يستشعر شيئا من الخجل وخيبة الظن أيضا من تلك الأعمال العدوانية ، فيقلع عنها .

وزيادة على الحالات السابقة التى رأينا فيها كيف يصرع الضمير ويهزم ، نجد حالات أخرى ، يتعرّض الضمير فيها إلى شىء من الهزيمة قد تكون وقتية أو متكررة . فنى بعض الأحيان تثور الذات ضد الضمير المتحكم فيها وتتمرد عليه ، عند ما يثقل عليها سلطانه وجبروته وظلمه . فبعض الأشخاص ،

عند ما يواجههم المجتمع بأمر يمنعهم من القيـام به ، نجدهم ينجذبون إليه ويقومون به ، بالرغم من أنه لا يحمل لهم فائدة شخصية ، أو لذة ذاتيـة . أى أن النواهى الجديدة قد تغرى بعض الأشخاص بأن يقوموا بها ، وقد تغرى الأوامر الجديدة هؤلاء بكسرها والثورة عليها، بالرغم من تمثلهم إياها فى ضمائرهم. وكأن الذات فى هذه الحالة تحس تهديدا جديدا لـكيانها وحريتها المحدودة ، فتعمل على أن تؤكد نفسها محتجة على تلك القيود الجديدة التى يعمل الضمير على أن يكبلها بهـا . ولذلك تثور ضده ، وتكسر هذه الأوامر والنواهى . أو بمعنى آخر ، كأن هذا القيد الجديد يعمل على أن يشعرها بنقص زائد تجاه الضمير ، فيثير فيهـا ذلك ، غريزة السيطرة والنزعة للتفوق التى تحققها على شكل ثورة ضد الضمير ، ومخالفة له فيما يملى عليها من أمر جديد .

وفى بعض الأحيان نجد أن الثورة ضد الضمير تسقط على من يمثلون الضمير خارج النفس ، على ذوى السلطان مثـلا من مربين ، أو رؤساء أو حكام أو غيرهم . فبين الناس أشخاص ثائرون دائماً على ذوى السلطان ، حانقون حاقدون عليهم مهما تبدلوا ومهما اكتملوا . وليس هذا فى الحقيقة إلا انعكاساً لثورة ذات الواحد منهم ضد الضمير المتنفذ فيها ، الضاغط لها ، الرقيب المتيقظ عليها ، ومحاولة إرضاء دوافع الذات غير الاجتماعية ودوافع الذات السفلى بهذه الوسيلة .

وثمة حالة أخرى تبدو فيها مظاهر هزيمة الضمير . فالذات قد تزخر بدوافع الثورة والاحتجاج ضد الضمير ، ولـكنها لا تستطيع أن تحققها كلها ، فتكبت هذه الدوافع كبتا جزئيا ، وتستشعر الذات أنها معرقلة مكبلة ، دون أن تدرك تماما السبب الحقيقى لذلك . وإذا بالإنسان حاقد على أولئك الذين لم

يثقلهم الكبت الذى يحس ضغطه فى ذاته ، حاقد على أولئك الذين يستمتعون فى حياتهم بحرية أكثر مما يستمتع بها ، ثم إذا به يثور ضدهم ، ويضطهدهم ويؤلب الناس عليهم . وكثيراً ما تحدث ثورات اجتماعية بسبب ذلك ، يرضى الناس فيها دوافع نفوسهم الهمجية ، ورغباتهم الذاتية المكبوتة ، دون أن يستطيع الضمير ضبطها والتحكم فيها .

ضعف الضمير :

أوضحنا فيما سبق أثر الذات والذات السفلى فى الضمير . وكيف تؤثر بعض ظروف البيئة فى الإنسان تأثيراً من شأنه أن تسقط الذات العليا مندحرة أمام قوى الذات السفلى أو النفس الهمجية ، وأمام الرغبات المكبوتة فى النفس الواقعية التى لا يقرها الضمير . والآن نتكلم عن العوامل التى بسببها يضعف الضمير ، وتتمزق قواه .

وأول عامل يمكن أن نذكره ، عامل وراثى لا دخل للإنسان فيه ، ولا حول له ولا قوة عليه . وهو عامل الذكاء . فاذا كان الذكاء الذى يرثه الإنسان قليلا محدوداً ، كان تكوين ضميره ضعيفا محدوداً أيضا . وذلك لأن مثل هذا الإنسان ، فى كل مرحلة من مراحل حياته ، لا يستطيع أن يدرك قيمة الضوابط والروادع والأوامر والنواهى التى يفرضها عليه المتنفذون فيه . إنه لا يستطيع أن يدرك لماذا يقف المجتمع بينه وبين تحقيق دوافعه الأصلية ، ورغباته الذاتية . وبذلك لا يتمثل من المجتمع قوى الضبط والأمر والنهى بدرجة التساند والتغلغل نفسها ، التى يتمثلها بها الإنسان الذكى . ولذلك نجد المعتوه والأبلة أقرب إلى حيوان خال من قوى ضبط خلقية واجتماعية فى داخل نفسه ، أى يكاد يكون خاليا من الضمير . ونجد المأفون Moron — وهو أقل درجة فى الذكاء ممن نعرفه بالغبى — ذا ضمير ضعيف مفكك ،

سريع التحلل والانحدار أمام دوافع النفس الهمجية . ونجد الغبي على وجه العموم كثير الإثم والجموح والإجرام إذا ما قورن بالإنسان الذكى . كما نجد أيضا أن الأذكياء ، فى الغالب ، يكونون ضمائر قوية متساندة الميول ، منسجمة التركيب ، تتحكم فى نفوسهم الواقعية تحكما لطيفا مريحا ، دون اللجوء إلى إعمال كبت شديد فيها قد يؤدى إلى ثورة أو تمرد أو شذوذ .

والمجتمع لا يستطيع أن يقوم بشىء يذكر تجاه تقوية الذكاء . ولكن فى بعض البلاد استطاع أن يساعد الأغبياء والمأفونين إلى درجة كبيرة . وحاول أن يجعلهم منذ حداثتهم سعداء فيه ، مطمئنين إليه ، وذلك بمعاملتهم اجتماعيا وأخلاقيا تبعا لدرجة الذكاء التى هم عليها ، حتى أن حكومات تلك البلاد فتحت مدارس خاصة للمأفونين .

أما من ناحية البلهاء والمعتوهين ، فالجدال لا يزال قائما . إذ بزغت فكرة يوما من الأيام بمنعهم عن التناسل حتى ينقرضوا . ثم بزغت فكرة أخرى بجمعهم ووضعهم فى جهات خاصة بهم ، لا يختلطون فيها إلا أحدهم مع الآخر . ولا يتزاوجون إلا أحدهم من الآخر ، حتى لا ينقلوا ضعف ذكائهم المريع إلى نسل أفراد أسوياء كان يمكن أن يخرجوا للحياة نسلا سوياً ، لو تزاوجوا مع أسوياء مثلهم .

وكل ما أستطيع قوله هنا إن هذه المشكلة بحاجة إلى دراسة وجرأة ونظر لصالح المجتمع العام .

أما عوامل البيئة التى تعمل على إضعاف الضمير ، فقد ذكرنا عدداً منها عند الكلام عن المؤثرات التى تعمل على تقوية النفس الهمجية ، وإعطائها الفرصة للانتصار على الضمير ، وأخصها فى التدليل ، والقسوة المتناهية ، والتذبذب فى المعاملة .

وهناك عوامل أخرى تؤثر فى الضمير وتعمل على تفكيك قواه ، وأهمها الخمر والمخدرات . فمن شأن هذه أن تقلل من شعور الإنسان بالضوابط الداخلية لدوافعه الذاتية والهمجية . وبذلك يضعف الضمير أثناء السكر والتخدير . وتجد الذات الفرصة سانحة لتحقيق رغباتها المكبوتة ، ودوافع النفس الهمجية . ويكون الإنسان فى هذه الحالة أشبه بالحيوان الذى لا يهمه سوى إرضاء غرائزه دون اعتبار لأى شىء آخر . ولذلك نجد المخمر أو المخدر مستعداً لأن يقوم بأفظع الآثام ، ويرتكب أشنع الجرائم . فكم من رجل تكوّن ضميره على أسس قوية متينة ، ثم تعود الخمر والحشيش أو غيرهما من تلك المغيبات والمخدرات ، وإذا بضميره يتفكك بالتدريج ، فيصبح مجرما يعتدى لدرجة القتل ، ويسرق ، ويغش ، ويزنى . ثم هو علاوة على ذلك ، يضرب أسوأ الأمثلة إلى أولاده ، ويهملهم ، ويغريهم بطريقة لا شعورية بأن يمرحوا من غير ضابط ولا زاجر . وبذلك يزداد عدد الجامحين الآثمين المجرمين فى المجتمع .

وكذلك يضعف الضمير ويتفكك فى عند إصابة الإنسان ببعض الأمراض العقلية مثل مرض « الشيزوفرينيا » Schizophrenia الذى يكون الشخص فيه غير اجتماعى ، شديد الحساسية كثير التشكك والريبة ؛ ومثل المرض المسمى endemic encephalitis الذى انتشر فى أوروبا سنة ١٩١٨ ، ويتسبب عن التهابات فى المخ . وقد يحدث نتيجة له أن يسلك المريض خصوصا إذا كان صغير السن سلوكا منافيا للأخلاق فيعتدى على الغير ويسرق .

جعل الذات العليا مجرمة :

وعلاوة على ذلك ، فإن الذات العليا أو الضمير عرضة للكثير من الآفات . إنه يُتملق ويُرتشى فضلا عن أنه يُغزى ويهزم . وهو لذلك قد

يقف جزئيا فى بعض الأحيان إلى جانب السلوك المنافى للأخلاق والمجتمع .

فلقد ذكرنا من قبل أن الإنسان أو الذات تميل فى بعض الأحيان إلى أن تقوم بالأشياء الممنوعة التى لا يوافق عليها الضمير طبعا . ولكى تنجح فى ذلك ، فإنها تتملق الضمير وتخادعه ، فتعطى تلك الأعمال التى لا يوافق عليها صفة المشروعية فى بعض ظروف خاصة . وبذلك ينخدع الضمير . إذ يرى أن هذا العمل الذى لا يوافق عليه من حيث المبدأ مشروع واجتماعى فى ظروف خاصة فقط ، فيسمح به للذات فى تلك الظروف فقط .

والمثل فى ذلك تقبيل الرجل المرأة مهما كانت ، أو المرأة الرجل فى عيد الميلاد تحت شجرة المسلتو . وهى عادة شائعة لدى الغربيين ، ومثل لعب القمار وشرب الخمر فى الحفلات الاجتماعية الخيرية ؛ والاستمتاع بالحريات المختلفة فى بعض الأعياد والمواسم مثل عيد الحرية فى فرنسا ؛ ومثل شرب الخمر مع جماعة كلهم يشربونها ، حتى لا يكون الفرد ناشزاً ، وحتى لا يكون السبب الوحيد لعدم متعتهم ، وغير ذلك .

هذه الاستثناءات الصارخة التى يسمح بها الضمير للذات فى بعض الظروف ، تفتح أول جرح فيه للانحلال . إذ أن الذات وقد ذاقت حلاوة الاستمتاع برغباتها المكبوتة ، وبشهوات الذات السفلى ، لا تستطيع فى بعض الأحيان أن تنساها أو تهجرها ، بل قد تعاود الاستمتاع بها فى الظروف العادية ، ولو كان فى ذلك تعذيب الضمير لها ، وهكذا تتجرأ الذات على الضمير شيئا فشيئا ، وتوسع الجرح الذى شقته فيه قليلا قليلا ، حتى تستنزف دمه وحيويته ونشاطه ، فيصيبه الاعياء والعجز ، ويصبح معها متسامحا ، لأنه أصبح ضعيفا منحلا .

كم تتغير أخلاق بعض الناس نتيجة لتلك الحريات الوقتية التى يسمح الضمير بها فى بعض المناسبات الخاصة . كم تكون بداية سيئة لعادات ضارة

غير أخلاقية ، ولانحلال فى تكوين الضمير الإنسانى القوى .

كم بدء بسببها الإدمان على الخمر ، وتعود الميسر والقمار ، والاستغراق فى حياة بهيمية وضيعة . وكم قضى هذا على صحة بعض الناس ، وأفسد عليهم استقرارهم بل وحياتهم وحياة من يلوذ بهم .

تحالف بين الذات السفلى والذات العليا :

وثمة طريقة أخرى تلجأ إليها الذات السفلى تجاه الضمير لكى تغرر به للتغاضى عنها والسماح لها بتحقيق دوافعها البهيمية ، وهى أن تستدرجه لعقد معاهدة وتحالف لاشعورى معها ينص على أن يسمح الضمير لها بأن تحقق الذات بعض دوافعها ، على شرط أن تدفع الذات ثمنا لذلك مايطلبه الضمير . وماذا يطلبه فى سبيل ذلك إلا أن يعاقبها ، ويحقق ميوله السادية القاسية معها ؟

إن قيام هذا التحالف مصدر ضعف تدريجى فى التركيب الخلقى الإنسان . إذ سرعان ماتستمرىء الذات العقاب ، ذ تراه شيئا لايذكر بجانب استمتاعها برغباتها ، وقضاء شهوات الذات السفلى . . وبذلك يزداد التحالف مناعة وقوة ؛ يرى فيه الضمير استبقاء لقوته وسلطانه ، وإرضاء ا لنزعاته السادية ؛ وترى الذات السفلى فيه استمتاعا بشىء من الحرية . أى مخادعة أكبر من هذا ، وأى انتصار للنفس البهيمية ألمع من هذا الانتصار ؟ ! !

إن مثل هذا التحالف يشبه التحالف غير المقصود أو التحالف اللاشعورى — إذا صح أن نسميه بذلك — بين رجال الدين وعصابات تجار المخدرات ... كلاهما يعضد منع المخدرات . الاولون يعضـــدونه من الناحية الدينية ، والآخرون يعضدونه لكسبهم المادى[1] .

---

(١) ذلك لأنه لو كانت تجارة المخدرات حرة ، لما ربحت هذه العصابات تلك الأرباح الباهظة التى نسمع عنها .

لقد رأينا شيئا من هذا التحالف غير المقصود بين رجال الدين ورجال العصابات فى أمريكا عند ما سُن قانون منع المسكرات . كلاهما كان يعضد القانون : الأولون يستندون الى أحكام الدين ، ورجال العصابات يستندون الى الرشوة يقدمونها للمتنفذين ، حتى يبقوا على هذا القانون الذى يدر عليهم كبر ربح وأعظم كسب مادى .

ونجد مثلا لهذا التحالف أيضا فى بعض المتعصبين من الناحية الدينية . إذ نجدهم مليئين بالحقد والشر والضغينة والشراسة ، ضد الناس الذين يفوقونهم فى العلم أو فى كسب رضا المجتمع واحترامه . إن الحقد والشر والضغينة والشراسة مظاهر دوافع الذات السفلى ، ومظاهر الرغبات الذاتية . فكأن ضمير مثل هذا الشخص قد سمح للذات السفلى بأن تتمتع بشىء من الحرية ، مقابل أن يفرض سلطانه على الذات فى أن تؤدى الفرائض ، وتمتنع عن إرضاء بعض الشهوات الأخرى ، وتعيش عيشة فيها شىء من الزهد والتقشف والعزلة . إن التكوين الدينى لمثل هذا الشخص تكوين سقيم معتل .

الضمير المجرم :

وعلاوة على ذلك فقد يكون الضمير المتكون فى الإنسان ، ضميراً منحلا مجرماً فى أصوله وجذوره . عند ما تشاء ظروف الحياة القاسية ، أن تجعل الطفل ينشأ مع أبوين منحلين أو مجرمين ، يتمثل منهما مثلهما الوضيعة . وبذلك ينشأ الطفل جامحا غير اجتماعى وغير أخلاقى ، ويصبح مجرما خطيراً مفسداً للمجتمع .

لقد سنت بعض البلاد قوانين تسمح بانتشال الأطفال من أحضان والدين منغمسين فى الإجرام ، ووضعهم فى مؤسسات تربوية ، يتمثلون فيها المثل الصالحه التى يمكن أن تطغى على المثل الوضيعة التى أشربوها فى منازلهم

من قبل . وبذلك ينشأون نشأة سوية اجتماعية أخلاقية .

ويجب أن أذكر أن فى جميع الحالات السابقة التى تتهرب الذات فيها من من الذات العليا ، أو ينهزم الضمير فيها أمام دوافع الذات السفلى والرغبات الذاتية ، نلمس أن زعزعة الشعور الداخلى لدى المرء بالعدالة ، يلعب دوراً كبيراً فى ذلك .

فإذا لم يكن هناك جزاء طيب للسلوك الصالح الذى تقوم به الذات ، أو إذا وُقع على الإنسان عقاب قاس لا يتناسب مطلقا مع خطيئته وذنبه ؛ أو بمعنى آخر ، إذا لم تكن هناك عدالة داخلية ، وإحساس بتوازن وتعادل بين سلوك الذات ومعاملة المتنفذين فى الإنسان له على هذا السلوك ، تثور الذات ضد الضمير ، فإن بدا لها متسامحا لينا ابتلعته ، وجرفته معها النفس البهيمية . وإن بدا لها ظالما قاسيا ، تمردت عليه ، ووقفت أمامه موقف عناد وتحدى .

وقد يكون تزعزع الشعور بالعدالة الداخلية هذا ناتجا عن أسباب بيولوجية مثل المرض المزمن ، أو ضعف الجسم أوالعاهة . فى هذه الحالات يشعر بعض الناس أن الحياة ممثلة فى المسيطرين عليهم ، من والدين ومربين وحكام ، بل وقوى روحية ، حياة ظالمة . وأن المقاييس والمعايير والمستويات التى وضعت للناس ، لا يمكن أن تنطبق عليهم . إنهم يشعرون شعور الشخص الذى وقع عليه عقاب دون مبرر . ولذلك يعطون لأنفسهم شيئا من الحرية ؛ بل يستشعرون أن من حقهم أن ينعموا بميزات خاصة فى الحياة .

إن هؤلاء يتطلبون ولا شك معاملة متبصرة صبورة خاصة ، تبث فيهم الشعور بالعدالة الداخلية من أول الحياة حتى يسيروا فى ركابها سيرا متوافقا معها ، منسجما مع مجتمعاتها وقوانينها وأنظمتها .

وقد يتأثر الشعور الداخلى بالعدالة بمؤثرات اجتماعية واقتصادية ، مثل الفقر المدقع ، والتعطل ، وفساد الحكام المتنفذين ، وغير ذلك ، مما يجعل الذات تثور بعنف ضد الضمير ، إذ ترى فيه حاكما ظالما قاسيا . وقد تنعكس هذه الثورة الداخلية على المجتمع كله ، وربما كان هذا من أهم أسباب التمرد والثورات فى المجتمعات .

ويمكن أن نلخص هذه المؤثرات فيما يأتى :

١ — عدم مكافأة الإنسان على سلوكه الطيب وفضائله وصلاحه ، وقد أشرنا إلى ذلك فى حالة الطفل الذى يعبس أبوه دائما فى وجهه ، مهما سلك السلوك الذى يرضيه .

وكذلك الزوج الصالح الذى لا يقابل زوجه إخلاصه بإخلاص ، أو الذى قد يسىء زوجه الظن به فيتهمه اتهامات باطلة ، إن هذا قد يثير فيه ثورة على الحياة الزوجية ومقاييسها ، وتمرداً من قبل الذات على الضمير . وفعلا يبدأ المرء يسلك سلوكا منافيا لما كان يسلكه من قبل .

٢ — المقاساة والتألم المبالغ فيه . إن هذا قد يمحى الشعور بالذنب الذى قد يستشعره المرء ، فتبدأ الذات بالثورة على الضمير . والمثل فى ذلك الفقر ، والمرض المستمر وغير ذلك . وكذلك عقاب الأب الطفل عقاباً صارماً على كل إثم بسيط ، أو مؤاخذة الزوج زوجه ، أو الرئيس مرؤوسه مؤاخذة قاسية كلما أخطأ خطأ بسيطا ، وهكذا .

٣ — أن ينال بعض الناس جزاءاً طيبا عن غير استحقاق . والمثل فى ذلك المحسوبيات الكثيرة التى ينعم بها موظفون عن غير جدارة .

٤ — التسامح مع المذنبين والمجرمين ، وعدم مؤاخذتهم على ما يرتكبون من آثام وذنوب ، مما يضعف موقف الضمير وسلطانه ، ويجعل الذات ترى فيه قوة صورية ، وإذا بها تهزأ به ، أو تتمرد عليه .

٥ — إهمال التقاليد ، والقوانين الاجتماعية، والنظم ، والمعايير الخلقية ، فى بعض الظروف الخاصة ، فى الحروب مثلا أو الثورات . إذ تشعر الذات أنها تقاسى كثيرا . أو أن أمامها طريقا شاقا مضنيا يجب أن تسير فيه ، فيمحى بذلك الشعور بالذنب وتتغلب الذات السفلى على الضمير . بل وكأن الضمير قد أسقط على الشعب المحارب أو الثائر ، فأصبح يستمد قوته ومقاييسه منه . وبذلك يستحل بعض الناس لأنفسهم ، أن يرتكبوا كل خطيئة من سرقة وقتل ورشوة وغير ذلك .

وبالرغم من ذلك نجد أن بعض الناس ، حتى فى هذه الظروف التى شرحناها لا يزالون مستمسكين بضمائرهم ، مهتدين على هديها وأنوارها . هؤلاء هم الذين نشأوا نشأة طيبة كونت فيهم ضمائر قوية منسجمة العناصر ، متحدة المقاصد ، لاتستطيع الذات والذات السفلى أن تجد سبيلا لإرشائها أو خداعها أو التسلل إليها .

بقيت نقطة أخرى سبق لى فى المحاضرة الثانيـة أن نوهت بها : وهى الصراعات التى قد تنشأ فى االذات المثلى ، نتيجـة لعوامل ذكرتها ، ومنها أن الإنسان قد يتمثل من والديه مثلا ، فإذا ما تغلغل فى الحياة الاجتماعية ، فإنه قد يتمثل منها مثلا تخالف الأولى ، فيحدث صراع بينها يتوقف نتيجتـه على قوة تركيب المثل الأولى .

نشهد هذا بشكل واضح محدود فى بعض الشباب الذين قد يدخـل فى

ذاتهم المثلى ، وخصوصا فى دور البلوغ والشباب ، عناصر جديدة مشتقة من أشخاص معينين . فقد يبدأ الفتى يتخذ مثلا له فتى آخر أو رجلا كثير الاعتداء أو يشرب الخمر ، فإذا به يفعل مثله . وقد يضطره هذا للسرقة أيضا وللسبب نفسه قد تضطر الفتاة إلى اختلاس الملابس أو أدوات الزينة ، أو النقود التى تستطيع أن تحصل بها على ذلك ، حتى تظهر فاتنـــة جذابة مثل الفتيات اللواتى اتخذتهن مثلا لها . ويتبين من هذا أن عاملا جديداً نشأ من المجتمع ، وتمثله الإنسان ، فأضعف من تكوين ضميره .

ولـكنى أريد أن أشير هنا إلى ماهو أهم من ذلك وأعم ، وخصوصا فى هذا العهد الدقيق الذى يمر الشرق به اليوم ، والذى يضطرب العالم فيه اضطرابا عنيفا شديدا .

فلقد بدأت بعض الأبصار ترنو إلى مجتمعات غير هذا المجتمع ، ويتخذ بعض الناس مثلا من تقاليد وأنظمة ومعايير غـير التقاليد والأنظمة والمعايير السائدة .

إن فى هذا شيئا من الحق ولـكن ليس فيه الحق كله .

إن من واجبنا حقا أن نستفيد من خبرات الغـير ، ومن معلوماتهم . ولـكن أن ننظر اليهم مثلا أعلى ، وهم زاخرون بالمساوىء والنقائص ، ثم نتمثل هذا المثل ليتصارع مع مثلنا السابقة — إن فى قيامنا بذلك هدما وقلقا وترنحا لنا أفرادا ومجتمعات ، وفيه تهديد لأمننا النفسى ، وزعزعة لتكويننا الخلقى ، وانزلاق إلى الهاوية ؛ لأن هذا الصراع قد يؤدى إلى تغلب دوافع الذات السفلى فينا ، وجرف نفوسنا الشهوانية لنا ، وبذلك نجلب على أنفسنا الشقاء .

خذوا مثلا مشكلة الزواج الآن فى الشرق ، خصوصا بين الطبقات المثقفة .

لقد سبق لى أن أشرت إلى هذا النظام الاجتماعى لأننا نعده من الناحية النفسية أهم الأنظمة ، إذ فى رحابه تتكون الأفراد , وفى دائرته توضع جميع الأسس لكل بنيان اجتماعى .

هل تريدون أن نتمثل فى الحياة الزوجية مثل المجتمعات الأخرى بجملتها بما فيها من خير وشر ؟ أليس الأفضل أن نتمثل منها خيرها بالتدريج ، وما يتفق منها مع الحياة الكريمة وأهداف الزواج ؟

لقد بدأت بعض المجتمعات تئن من الفوضى الضاربة أطنابها فى حياتهم الزوجية . ويكفى أن أذكر أن الزواج الحديث فى أمريكا مثلا زواج فاشل، وأن الإحصائيات فى السنوات الأخيرة كشفت عن أمر أزعج الأخلاقيين ورجال الإصلاح ؛ فان أكثر من ٦٠ ٪ من الزيجات السنوية الحديثة تنتهى إلى طلاق .

لماذا نثور ضد تقاليدنا كلها ، ونرى فى تقاليد الغير وأنظمتهم كل خير، بينماهم يئنون منها ويثورون عليها ؟ أننسى أن المفاسد والثورات والحروب تصدر عن تلك المجتمعات التى نرنو اليها مثلا أعلى للعادات والأخلاق والنظم؟ وماذا تعنى هذه الثورات والحروب إلا فساد الضمائر ، وتهتك الأخلاق ، وانحطاط الروابط والصلات ؟

إنى أنقل كلمة عن العالم النفسى السويسرى كارل يونج Karl Jung[1] وهو رجل اتصل بحكم مهنته محللا نفسيا بألوان وأشكال مختلفة من الناس ، من مجتمعات وبيئات كثيرة متباينة ، فأصبح لديه ذخيرة من خبرات بالإنسان والإنسانية قلما تجمعت لشخص غيره .

---

(١) كارل يونج منشىء مدرسة علم النفس التحليلى Aaalytical Psychology

يقول يونج فى كتابه « الرجل الحديث يبحث عن روح [١] .

« ليس عجيبا فى رأيى أن يجدد الرجل الحديث (العصرى) عقيدته فى الحياة الروحية ، وأن يلتمس فيها تلك الثقة التى تنكرها عليه الحياة .

« ولكن العالم الغربى الآن فى موقف خطر من الناحية الروحية . . وكلما عمينا عن أن نبصر الحق القاسى بأن ننظر إلى تلك الأوهام التى نتوهمها عن جمال الروح ، زاد الموقف خطراً . . إن الرجل الغربى يحرق البخور لنفسه وقد أصبح وجهه مخفيا عنه فى دخان البخور . ولكن كيف يرانا غيرنا من الناس من ألوان أخرى ؟ ماذا تعتقد الصين والهند فينا ؟ أى مشاعر تثيرها فى الرجل الأسود ؟ وما فكرة جميع أولئك الذين نسلبهم أوطانهم ، ثم نفنيهم بالخمر والأمراض السرية ؟

« إن لى صديقا من الهنود الحمر ، هو حاكم لمحلة . . كنا نتكلم معا بصراحة عن الرجل الأبيض ، فقال لى (نحن لا نفهم البيض . إنهم دائما بحاجة إلى شىء . . دائما فى قلق . . ودائما يترقبون شيئا . ماهو ؟ نحن لا نعرف . نحن عاجزون عن أن نفهمهم . . إن لهم أنوفا دقيقة ، وشفاها قاسية رقيقة ، وفى وجوههم خطوط كثيره . . إننا نعتقد أنهم جميعا مجانين .)

« لقد رأى صديقى فى الرجل الأبيض ، الطائر الآرى المتعطش دائما للافتراس فى كل مكان . . حتى فى البلاد التى لا تتصل به بأية صلة .

« هذا هو منظر الأوروبى إذا ما أخرج من سحب بخوره الخلقية . . . فلا عجب إذا أردنا أن نستخرج أجزاء الحياة الروحية الدفينة . . أن ننزع أولا المستنقع المنتن . . هذه هى بداية علم النفس عندنا » .

---

(١) Modern Man in Search of a Soul ترجمة W. S. Dell & Cary F. Baynes من صفحة ٢٤٥ إلى صفحة ٢٤٧ من الطبعة السادسة سنة ١٩٤١ .

مطبوعات للمؤلف

(١) تربية الطفل ومبادىء علم النفس :

بالاشتراك مع إملي عبد المسيح وبهيجه بيومى والدكتور احمد شاهين الناشر دار المعارف

(٢) التحليل النفسى للأطفال :

ترجمة عن الانكليزية : المؤلفة أنافرويد الناشر مكتبة النهضة

(٣) اختبار الزمالك للذكاء : الناشر لجنة التأليف والترجمة والنشر

(٤) مقياس ستانفورد — بينيه للذكاء : باللغة العامية العراقية دار المعلمين العالية بغداد

(٥) المشاهدة فى مبادىء العلوم :

بالاشتراك مع أحمد محمود طنطاوى وسامى زيتون الناشر دار المعارف

(٦) مبادىء العلوم : بالاشتراك مع أحمد محمود طنطاوى الناشر دار المعارف

(٧) تابع الشيطان : ترجمة عن الانكليزية : المؤلف جورج برنارد شو الناشر مكتبة النهضة

(٨) سيكولوجية الضمير : الناشر دار الفكر العربى

تحت الطبع

(١) موضوعات نفسية

(٢) دوافع السلوك


Bibliotheca Alexandrina
0399019